454

HARLEQUIN

روايات أحلام

مسافر بلا حلم

فيونا هاربر

www.elromancia.com

مرمورية

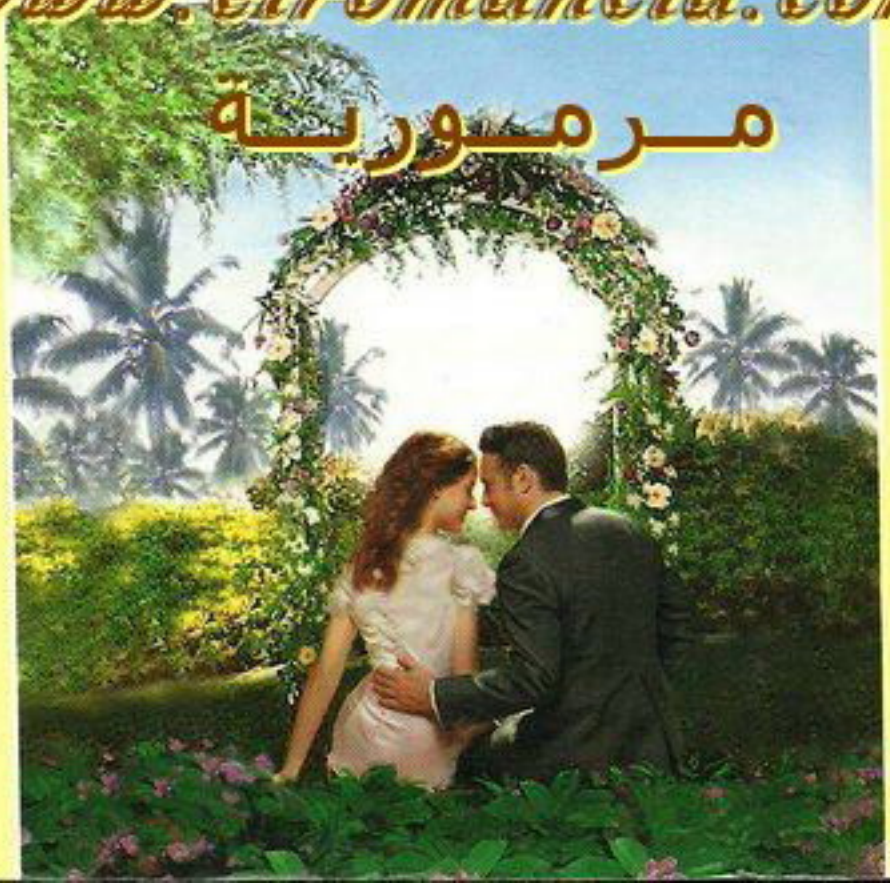

مسافر بلا حلم

مزرعة ريفية بسيطة ... وطقطقة نار دافئة.. ومناظر ريفية هادئة . كلها أجواء خلقت وضعاً مثالياً لأمسية رومانسية حميمة !..

كانت هذه الأمسية آخر ما يريده نيك وأديل . فزواجهما انتهى و لا مجال أبداً للعودة.. ولكنهما وجدا نفسيهما محجوزين في هذا الكوخ الرائع ..وفي أحضانه عجزا عن مقاومة الشرارة التى تشتعل في كيانهما دائماً..

لكن ما إن بدأ وميض النار يقوم بسحره . حتى اكتشف الزوجان أن هناك شيئاً يختبىء تحت جليد انفصالهما !!

ISBN 978-9953-15-465-7

لبنان	3000ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	100ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2.50دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

فيونا هاربر

عندما كانت فيونا صغيرة كان الجميع يسخر منها لأنها كانت دائماً إما غارقة في كتاب أو في عالم الأحلام.

ولم تتغير فيونا حتى الآن لكنها وجدت في الكتابة وسيلة للتعبير عن خيالها الخصب. درست فيونا الرقص وعلمته وصممته. ثم تحولت إلى عالم الأقلام والإنتاج. وعندما أصبحت أمّاً خفّفت من ساعات العمل لتهتم بابنتيها وتعود إلى حبها القديم... تأليف الروايات.

تعيش فيونا الآن في لندن. تحب الطهو والأكل وكل ما هو بطعم القرفة. وما زالت حتى الآن تعجز عن مقاومة كتاب جيّد، أو فيلم مشوّق، خاصة إذا كان عاطفياً.

وهي تتزود دائماً بالمناديل الورقية لأنها تعلم أنها ستبكي في النهاية، سواء أكانت سعيدة أو حزينة.

أجمل ما في حياتها زوجها وابنتاها.

١ - عنكبوت

قاومت أديل الدافع الذي حثّها على الهرب والصراخ. أغمضت عينيها وأخذت نفساً عميقاً، ثم أمرت يديها أن تتوقفا عن الارتجاف. حين أصبحت دقات قلبها أقل تسارعاً فتحت عينيها مجدداً.

لم يتغيّر شيء. ما زال العنكبوت ذو الأرجل الثماني والجسم البدين يعيش في حوض استحمامها. تراجعت أديل إلى الخلف قليلاً من دون أن تشيح بنظرها عن الأرجل الطويلة الهزيلة، مترقبة أي ارتعاش يشير إلى إقدام هذا المخلوق على حركة مفاجئة. حين حجبت حافة الحوض رؤيتها للدخيل أخذت تتحسّس الرف فوق المغسلة بارتباك، فتطاير معجون الأسنان والفرشاة فيما انتزعت كوب الزجاج الذي يحتويهما. جالت نظراتها حول غرفة الحمّام بسرعة من دون أن تقع على شيء محدّد. أجبرت نفسها على النظر مجدداً ببطء أكبر هذه المرة.

رأت المجلة التي قرأتها في المرة الأخيرة مستقرّة باتزان على سلة الغسيل. هذا ما كان ينبغي أن تفعله لولا هذا الدخيل. اهتاج في صدرها غضب حانق ومبرّر، كيف يجرؤ ذلك المحتلّ الصغير القذر على إفشال خططها؟

أمسكت أديل المجلة وسارت نحو حوض الاستحمام، محاولة ألا تسمح لخطاها بالتداعي مع اقترابها. بدا الأمر أسهل بكثير حين كان هناك من يقضي على العناكب سواها، لكن تلك الأيام لن تعود. ها هي الآن وحدها بمواجهة العنكبوت ذي الأرجل الثماني.

رفعت كوب الزجاج المقلوب في يدها آملة ألاّ يتزحلق. بدت أطراف أصابعها مبلّلة بالعرق، وأخذت أنفاسها تصدر في لهثات. خطوتان بعد

وتصبح قريبة بما يكفي لالتقاطه!

أصبح الكوب على بعد بضع إنشات فقط من المخلوق. بدا كل شيء ساكناً حتى العنكبوت نفسه، وكأنه أحسّ بها تقترب. ثم تحرك فجأة وصعد باتجاهها على حافة الحوض.

رمت أديل الكوب والمجلة باتجاه مهاجمها وسارعت بالهرب إلى خارج الحمّام، فيما ملأ صوت الزجاج المحطّم أذنيها. أقفلت الباب بقوة واستندت إليه، فلربّما جرّب العنكبوت فتح الباب.

يجب ألا تفعل هذا! الخوف الذي ينتابها غير عقلاني. أرادت أديل أن تبتعد عن الباب في ذلك الوقت، لكن صوتاً من داخل الحمّام جعلها تمسك مقبض الباب بقوة أكبر.

لو أنّ... لا، لن تفعل هذا... لن تتمنّى وجوده. إنها ليست بحاجة إلى رجلٍ لتمسك بعنكبوت، لاسيما ذلك الرجل بالذات. أفلتت مقبض الباب ومررت أصابعها على شعرها الأسود الطويل، فيما صدرت عنها تنهيدة طويلة. أستطيع أن أفعل هذا! فكرت أديل بذلك وهي واقفة هناك وسط السكون. يجب أن أفعل هذا، فلن يقوم بالأمر أحد آخر من أجلي!

ارتجفت يداها وهي تملّس ثنيات ثوب استحمامها الأبيض وتشدّ رباطه. بدت تلك حركة غير هادفة، فصديقها المكسو بالوبر في الداخل لا يأبه لشكلها، لكن أديل تحتاج إلى أن تظهر بشكل لائق وهادئ. تحتاج لأن تكون أديل التي لا تخاف من أي شيء.

استدارت لتواجه باب الحمّام. تخيلت نفسها في إحدى بذلاتها التي ترتديها إلى العمل، وشعرها مصفّف في لفّته الاعتيادية وهو ينساب على مؤخرة عنقها. الأمر برمته متعلّق بالموقف العقلاني. تستطيع فعل أي شيء إذا عقدت العزم على فعله.

حضرت أديل بعض حلقات دراسية تدريبية سخيفة حين عملت في فينتون وباريت. كانت تتظاهر بالاصغاء، بينما هي في الحقيقة تفكر في كيفية إنشاء شركة خاصة بها مؤلفة من مستشارين إداريين. جعلت أحلامها تتحقق منذ

ذلك الوقت، وهي تستطيع بالتأكيد أن تقوم بالخدعة ذاتها الآن.

مالذي تفوّه به هؤلاء الناس؟ آه، نعم. التخيّل! ركّزت أديل على المخلوق في حوض الاستحمام، وتحوّل في ذهنها إلى صورة فراشة ضعيفة مشعّة بالالوان. بإمكان أي كان أن يلتقط فراشة. أليس كذلك؟

جذبت أديل الباب ففتحته ثم سارت نحو الحوض. كان الزجاج المكسور يغطي الأرض، لكنّ المخلوق الذي تسعى إلى التقاطه قطع نصف الطريق صعوداً نحو الحنفيتين. لو لم تكن ذكية وخبيرة، لاعتقدت أن العنكبوت يرمقها بنظرة غرور. همهمت في سرها فيما مدّت يدها إلى الأمام وضمّت أصابعها عليه: «فراشة!»

حاولت أديل أن تمشي ببطء، لكن بعد خطوة ونصف، أخذت تركض. صرخت فيما بدأت أرجل العنكبوت ترتعش في يدها وهي تحاول جاهدة ألا تتقيّأ: «فراشة!»

صاحت فيما فتحت النافذة بيدها الطليقة، ورمت ذلك المخلوق الفظيع منها: «يا للقرف! عنكبوت، عنكبوت، عنكبوت!».

ارتجفت ثم حفّت يدها على رداء استحمامها مرة تلو الأخرى حتى شعرت بالحرارة تغمر تلك اليد. إنها حقاً تحتاج إلى الاستحمام الآن، لكن قبل أن تفعل هذا، ثمّة الكثير من الزجاج على الأرض لتنظيفه. ما من أحد هنا سواها ليلتقط العناكب أو ليزيل كسرات الزجاج عن الأرض إذا أهملت إزالتها.

كان رأس أديل محشوراً تقريباً في الخزانة تحت مغسلة المطبخ حين رنّ جرس الباب. كانت الشمس قد غابت لتوها، لذا لم يكن من الضروري إضاءة المصابيح لكن الظلمة بدت كافية لتمنعها من رؤية ما تفتش عنه. امتدت أصابعها إلى المنطقة المعتمة في مؤخرة الخزانة.

أين المكنسة والمجرود اللعينين؟ يجب أن يكونا هنا في مكان ما.

راح جرس الباب يرنّ مجدداً، فضربت أديل رأسها بأعلى الخزانة وهي ترفعه لتقف. جرس بابها ليس من النوع الذي يمكن تجاهله، فهو لا يصدر تلك الموسيقى الناعمة التي تشير إلى أن أحدهم ينتظر بصبر خلف الباب مع باقة ورد

في يده. آه، لا! هذا الجرس هو أحد الأجراس التي توحي بالاصرار، وتطلق صوتاً مزعجاً كصوت بوق دراجة هوائية قديمة الطراز.

كلّ ما تبتغيه أديل في أمسية يوم السبت بعد قضاء نهار كامل في المكتب، هو أن تغوص في مياه ملأى بالفقاقيع في حوض استحمامها، وأن تقرأ الفصول الأربعة المتبقية من كتابها. سارت بخطوات هادئة لكن سريعة نحو الباب الأمامي، وفتحته بعنف من دون أن تهتم حتى بأنها في رداء الاستحمام. كانت على وشك أن تثور قائلة: نعم؟ ماذا تريد؟ إلاّ أن الكلمات تلاشت على شفتيها. رأته مستنداً إلى الحائط والبريق يشع من عينيه، وغمّازة تزيّن كلاً من خدّيه.

عرفت أديل أن فمها كان مفتوحاً، لكنها لم تبدُ قادرة على إغلاقه مجدداً. ابتسم الضيف فتعمقت الغمازتان أكثر في خدّيه.

- مرحباً، أديل!

- ن. . . نك!

في الدقائق القليلة الأخيرة، توارت الشمس أكثر خلف أسطح المنازل وأعمدة المداخن المنتشرة في تلك الناحية، أمّا الوهج الساطع من ضوء الشرفة، فجعله يبدو دافئاً متلألئاً باللون الذهبي.

بدا نك. . . حقيقياً جداً. إنه ليس نك الذي اعتادت أن تصرخ في وجهه في خيالها على مرّ الأشهر التسعة الماضية. صوّره لها خيالها أقصر قامة، صبياني الملامح، وأقل جاذبية. استطاعت على الفور أن تشعر بتلك الكيمياء المألوفة بينهما تسيطر عليها.

نظر نك عميقاً في عيني أديل، فشعرت أن ما تبقى من خلايا دماغها الحية يتلاشى ويتحوّل إلى العدم. حرّك حاجبه، وقال: «إنه هو، لا سواه».

هزّت أديل رأسها من دون أن تعرف حتى من أين تبدأ. لِمَ هو هنا؟ متى عاد إلى البلاد؟ والأهم من هذا، لِمَ تُراه يقف على الدرج الأماميّ لمنزلها كأنّ شيئاً لم يكن؟

- هل يمكنني الدخول؟

أرادت أديل أن تقفل الباب بعنف في وجهه، وأن تطلب منه ألاّ يزعجها ثانيةً، وأن يتصل بمحاميها إذا أراد، لكنها وجدت نفسها تهز رأسها إيجاباً. لطالما تمتّع نك بتلك المقدرة المزعجة على جعلها تقوم بما يريد. على الرغم من أن قصده يبدو شريفاً دائماً، إلاّ أنّ أديل هي التي تنجرح في آخر المطاف، والتي تضطر إلى تحمّل ما نتج من سوء. كانت فكرة سيئة حقاً أن تدع نك هيوز يدخل حياتها، أما الفكرة الأسوأ فكانت أن تتزوجه.

مشت أديل في الرواق وتبعها نك. وحالما وصلا إلى المطبخ، استدارت لتواجهه. سألته: «ماذا تريد، نك؟»

هذه هي اللحظة التي ينتظرها، اللحظة التي تدرّب على الأداء فيها مرات لا تُحصى. لم يشعر في أحلام يقظته كلها بهذا التوتر قط. استدارت أديل لتنظر إليه محاولة ألاّ تجفل. هذا ما كان نك خائفاً منه، فقد تمنّى أن تكون في مزاج ملائم أكثر للتحدّث بعد مرور هذا الوقت. من الواضح أنها ليست كذلك، فمرور الوقت لم يساهم في التئام جراحها.

إنّ الغوص في صلب الموضوع مباشرة وإخبارها عن سبب مجيئه لن يجدي نفعاً، عليه أن يمهّد للحديث المرتقب. ذابت كلمات الالتماس الخالص على شفتي نك واستبدلها بأوسع ابتسامة استطاع أن يرسمها على وجهه: «يا لها من طريقة جميلة تستقبلين بها زوجك!»

ضاقت عينا أديل ولم تقل شيئاً. أخذ نك نفساً عميقاً. عليه فعل شيء ما ليوقف مهاجمتها له. بطريقة أو بأخرى، عليه أن يبقى في المكان الذي تقطنه حتى يتمكّن من جعلها تستمع إليه. استطاع أن يهمهم كلمات أقل حدّة فقال: «ما رأيك بكوب شاي؟»

استمرت أديل في التحديق به وبزبزوا عينيها يتقلصان ليصبحا ثقبين صغيرين. حسناً! أهذا أفضل ما تمكن من التلفظ به؟ يبدو أن رأسه ما زال مشوشاً بعد رحلة بالطائرة بدت كأنها أسبوع. كوب من الشاي قد يعطيه خمس عشرة دقيقة على الأقل ليتفاهم مع أديل. أضاف: «كانت رحلتي طويلة حقاً».

بقيت أديل ساكنة وباردة، حتى اعتقد نك أنها تجمدت وأنها لن تتحرك

البتّة. بعدئذ هزّت رأسها، وسارت لتتناول الإبريق. راقبها بدقة متناهية؛ حين تكون أديل في هذا المزاج، لا يستبعد أن ترمي الإبريق عليه. ملأت الإبريق بالماء وهي لا تزال تدير ظهرها نحوه، فيما كرّرت سؤالها السابق: «ماذا تريد نك؟»

انتظر نك حتى استدارت لتواجهه: «علينا أن نتكلّم».

هزّت أديل رأسها، وقالت: «لا! كان يجب أن نتحدّث منذ أشهر، أمّا الآن فقد فات الأوان».

- لدي أمر هام أريد أن أقوله لك.

- هاه!

أجفل نك، وسألها: «ماذا تعنين بهذا؟»

- أنت لا تعني حقاً أموراً مهمة أو مسؤولة أو موثوق بها، أو أي شيء يتطلب الجدية. أليس كذلك نك؟

ها قد بدأت أديل تهاجمه. انهارت كل نواياه الحسنة فالتجأ إلى الدفاع الوحيد الذي ينجح به. التوت زاويتا فمه بابتسامة، وأجاب: «هذا جزء من جاذبيتي».

- لهذا فشل زواجنا.

اختفت الابتسامة عن وجهه تماماً. من المؤكد أن الوضع لا يسير حسب المخطط. شعر نك أنه متعب جداً، فهو بالكاد يستطيع أن يفكر بطريقة سوية. حاول القيام بالحركة الوحيدة المتبقية لديه والتي تضمن الحصول على ردّ فعل. حان الوقت لإطلاق سحر الغمازتين. وسّع نك ابتسامته قليلاً وراقب عيني أديل عن كثب ليرى ما إذا كانت مشاعرها ستلين. لم تستطع أديل مقاومة غمازتيه.

- توقف عن هذا، نك!

البراءة التي ظهرت من خلال هزّه لكتفيه تستحق فعلاً جائزة الأوسكار.

- أعرف ما تفعله، ولن ينجح الأمر.

إنها البداية! من الواضح أن أديل أصبحت أكثر تحصناً وقوة أثناء بعاده،

لكن لا بُدّ من وجود نقاط ضعف في مكان ما، هذا ما جذبه نحوها في البدء؛ هذا الغطاء الخارجي البارد جداً الذي يخفي لبّاً حارّاً جداً: نار وثلج. هذا ما كانت عليه أديل. مشى نك نحوها فابتعدت عنه، وقالت: «أقلت إنك تريد التحدّث؟ حسناً! أنا مشغولة في الوقت الراهن».

- أستطيع أن أرى ذلك.

رمقها نك بنظراته من الأعلى إلى الأسفل، وشعر بموجة حرارة مألوفة فيما رأى رجلها الجميلة تظهر من فُتحة في ثوب استحمامها. سوّت أديل وقفتها وشدّت عقدة الحزام أكثر. قالت: «اتصل بي إلى مكتبي في الأسبوع القادم. أنا في خضمّ الاعداد لمشروع كبير، لكن قد تتسنى لي بضع دقائق نهار الخميس لأراك. أين ستمكث؟»

رفع نك حاجبيه، ثم أجال بصره في الغرفة.

- لا مجال! لن تبقى هنا.

طرف بعينيه وقال: «هذا مسكني أيضاً»

- للتصحيح؛ قد يكون هذا منزلك، لكنه لم يعد مسكنك منذ أن انطلقت بسرعة نحو الأطلسي، ولم تزعج نفسك بالعودة لمدة تسعة أشهر.

شبكت أديل ذراعيها ونظرت إليه. الآن ليس الوقت المناسب ليذكرها بأنه عاد ما إن تمكن من ذلك. بعد أسبوعين من العراك العنيف، سافر نك خمسة آلاف ميل ليسوي الأمر معها، لكنه عندما دخل إلى المنزل وجده خالياً. كانت أديل قد انتقلت لتعيش مع صديقتها الحميمة. لا! إنّ تذكيرها بذلك لن يجدي نفعاً، فهي ليست في مزاج مؤات لتواجه أخطاءها في هذه الآونة. في الواقع، لا يعتقد نك أنه يستطيع أن يواجه الذكريات أيضاً.

نزع سترته، وقذفها على أحد الكراسي المحيطة بمائدة الطعام، وغرق في الأريكة الليّنة الموضوعة في زاوية مطبخها. إنه في ورطة كبيرة الآن، فلا داعي لأن يزيد الطين بلة. عليه أن يحاول جهده ليصرف من ذهنها فكرة طرده. قد تكون أديل قصيرة القامة لكنها تتمتع بقوة مدهشة.

- ماذا عن كوب الشاي؟

أغمضت أديل عينيها وهبطت كتفاها. ربح نك الجولة الأولى، لكنه شعر بالأسى لأنه جعلها تبدو متعبة ومرهقة جداً.

- حضّره بنفسك. سأصعد إلى الطابق العلوي. إذا كنت تعتقد أنك ستضع الحقيبة التي تركتها في الرواق في غرفة نومي، فيمكنك إعادة التفكير بالأمر. أنت تعرف أين تقع الغرفة الإضافية.

أظهر نك تكشيرة فيما استدارت أديل وصعدت الدرج بخطى قوية. لم يتمكن من معالجة الأمور بشكل جيد، تعلّم نك منذ زمن بعيد أن حملها على الضحك هو الحل الوحيد.

تتمتع أديل بحسّ الفكاهة، لكنها تبقيه مكبوتاً في داخلها معظم الأحيان. أما ما يبرع به نك فهو حمل زوجته على الضحك. لطالما بدت له إذابة الغلاف الجليدي الذي تختبىء خلفه أديل أمراً رائعاً. فعندما تبدو قوية وهجومية، يأخذ نك في التظاهر بأن التفاهم معه مستحيل حتى يرى البريق في عينيها ويلاحظ طريقة تحرك فكها وهي تحاول أن تبقي تعابير وجهها جامدة. ما إن يشعر أن التوقيت مناسب، حتى يرمقها بابتسامة أخيرة ونظرة أخيرة، فتطلق نفخة قوية من الهواء وتحرّر ما في داخلها، لتصبح المرأة الدافئة الشغوفة التي أحبّها كثيراً.

ألقى نك رأسه على وسادة الأريكة وأغمض عينيه. إنه يعرف ما الذي تفكر به أديل: أن زوجها أراد أن يثبت وجهة نظره مرة والى الأبد، إلاّ أن نك لم يَرَ المسألة من هذا الجانب. ظلّت أديل متمسّكة بموقفها ومقتنعة أنها على حق، فلم تلاحظ أنها هي نفسها رفضت التراجع عن موقفها ولو قليلاً. لكل قصة وجهان، إلاّ أنّ أديل ظلت مقتنعة تماماً أن وجهتها هي الأصح. و المزعج في الأمر أنها غالباً ما كانت على حق. بالرغم من ذلك، فهي تخطىء أحياناً. وحين تفعل، فإنها ترتكب خطأً كبيراً.

غيّر نك جلسته ليشعر بالارتياح أكثر. بدا أن تعب السفر أخذ يتملك منه، كما بدت تلك الأريكة مريحة جداً. لاحظ أن سترة إحدى بذلات العمل الخاصة بأديل مثنية ومتدلية على ظهر الأريكة وأن رائحة عطرها الدافئة تفوح منها. إذا ما أغمض عينيه سوف يشعر كأنها جالسة بقربه. لطالما أمضيا

أمسيات كثيرة سعيدة متعانقين على هذه الأريكة القديمة بعد انتهاء وجبة المساء.

ابتسم نك فيما أخذ النعاس يثقل أجفانه...

أصدر الباب صريراً حين دفعته أديل ليفتح، ثم توقفت قليلاً. بدا الجو هادئاً... هادئاً جداً. بدا نك أشبه بالطفل المشاغب. فحين يكون صامتاً يبدو كأنه يخطّط لشيء ما مشكوك في أمره. تأرجح الباب على مصراعيه ورأته ممدداً على الأريكة وهو نائم كالطفل. جعلها هذا المنظر ترغب بالصراخ. كيف يفعل ذلك؟ كيف يمكنه بالرغم من كل التوتر بينهما أن يرقد بسلام ووداعة؟ أمّا هي فلم تشعر بالارتياح البتّة. نظرت أديل إلى نك مجدّداً وصدرت عنها تنهيدة تلقائية. بدا أشبه بالملاك إذ تمكن من النوم بمثل هذه السرعة. لاحظت أن شعره طويل جداً وليس فيه خصل شاردة، باستثناء بعض الشعرات التي تتدلى على جبينه. في الماضي، عندما كانت تستيقظ في الصباح الباكر كانت تبتسم له وتزيل بلطف الخصل العاصية. كل ما استطاعت فعله في تلك اللحظة هو أن تمنع نفسها من عبور الغرفة والقيام بهذه الحركة نفسها الآن. يجب عليها أن تخرج من هنا الآن، قبل أن تنسى كل الأسباب التي تمنع نك هيوز أن يحتل ولو جزءاً من قلبها.

التقطت أديل حقيبة يدها عن المنضدة، وأغلقت باب المطبخ. ما هي إلاّ لحظات حتى ارتدت معطفها وشالها وقفازيها وانطلقت خارجة إلى الطريق. بدا طقس منتصف شهر شباط في لندن رطباً وبارداً، وهذه الليلة لم تكن مختلفة على الإطلاق. سرعان ما وجدت نفسها في منزل منى. عندما وصلت حياتها الزوجية المتقلقلة إلى نهاية كارثية، احتاجت إلى اللجوء إلى صديقتها المفضلة. فتحت منى الباب وهي تحمل طفلتها فوق خصرها.

- يا إلهي! أديل، ماذا حدث؟

- يتعلق الأمر بنك.

شهقت منى ووضعت يدها على فمها. سألتها: «هل هو...؟ هل وقع حادث؟»

- لا. بل أسوأ.

- هل هناك أسوأ من الوقوع عن قمة جبلٍ؟

- ليست لدي فكرة إن كان يتسلق الجبال أم لا مؤخراً، لكنني أعرف مكانه في هذه اللحظة؛ زوجي الذي يعشق الرياضة حي وعلى ما يرام، وهو مستغرق في النوم في مطبخنا... مطبخي!

انعقد حاجبا منى معاً كالغيوم المنذرة بالرعد، وما لبثت أن غمرت صديقتها بطريقة فظة، فيما بدت متفاجئة تماماً. قالت: «من الأفضل أن تدخلي وتخبريني كل شيء».

حين تراجعت أديل، تبين لها أن لعاب الطفلة قد لوّث سترتها. لامست رأس ابنتها بالمعمودية وقبلتها، ثم تركت منى تقودها إلى غرفة الجلوس.

- ظهر بطريقة غير متوقعة.

- من دون أي إنذار؟

نظرت أديل إلى صديقتها نظرة ملؤها التعب، وأجابت: «ماذا؟ نك؟ ذاك الرجل الفاشل في التخطيط، والذي لا يستطيع أن يقرّر حتى ماذا يريد أن يأكل على العشاء إلا حين يشعر بالجوع؟»

وضعت منى بيثاني على الأرض فجأة وأعطتها لعبة لتلهو بها، ثم سألت أديل: «ماذا يريد؟»

هزّت أديل كتفيها، وأضافت: «من يدري؟ حاولت أن أسأله فقال إنه يريد التحدث».

- عمَّ يريد التحدث؟

أطلقت أديل نفساً وشعرت بمعدتها تندفع إلى الأسفل، ثم قالت بهدوء: «أفترض أنه عاد ليطلب... تعرفين... الطلاق».

وأضافت: «... هذا ما يفسر عدم تطرقه إلى الموضوع مباشرة، وإلاّ فما الذي جعله يظهر هكذا بعد تسعة أشهر؟»

- تسعة أشهر ونصف، في الواقع.

أغمضت أديل عينيها قليلاً وهزت رأسها، ثم قالت: «حسناً! بغض النظر عن عدد الأشهر... حتى نك لن يظهر هكذا ويقول: «مرحباً، حبيبتي!

ها أنا عدت إلى المنزل. وبالمناسبة، أنت أصبحت من الماضي».

هزت منى رأسها موافقة، وقالت: «بالطبع، أنت تريدين أن تقولي له ذلك أولاً».

بدت صديقة أديل جدية جداً، فلم تتجرأ على القول إنها لم تفكر فعلاً بهذا الأمر. لكن كان عليها أن تفعل. أين روحها القتالية؟ فجأة أصبح وهج السخط متقداً في داخلها وكأنه يحرق أحشاءها.

سوّت منى جلستها إلى الخلف ونظرت إلى أديل نظرة ملؤها التساؤل.

- أرجوك، لا تقولي إنك تريدين استرجاعه!

في تلك اللحظة، بدا من الطبيعي أن يصدر عنها جواب تلقائي مفاده «لا» قاطعة. وبدلاً من ذلك، أغمضت أديل عينيها.

- أديل؟

- ظننت أنني أريده أن يرحل إلى الأبد. بدا القرار سهلاً حين كان بعيداً آلاف الأميال، لكنه عاد الآن و... لا أعرف... يبدو الطلاق... حاسماً جداً.

- لا تدعيه يحبط عزيمتك من خلالِ سحره الصبياني، أديل!

- أنا لا أفعل.

- آه! أنتِ تضعفين. أستطيع أن أرى تصدّعات الضعف بوضوح. أنسيت الطريقة التي عاملك بها قبل مغادرته؟

لا، لم تنسَ. تذكرت كل تفاصيل ذلك اليوم الذي ألقى فيه مفاجأته المذهلة؛ عمله كمصمم أفلام ذات تأثيرات خاصة للتلفزيون وللسينما بدأ يلقى نجاحاً عظيما بعد سنوات من بقائه نجاحاً عابراً. بدا فعلاً أن ما يقوم به ليس فقط التسكّع في السقيفة الواقعة عند طرف الحديقة مع قطع قليلة من المعدن والأدوات المطاطية. بعد أن قام بتصميم إعلانين عاد التلفزيون وطلب منه أن يتولى إعداد التأثيرات لفيلم جديد منخفض الميزانية. خلافاً لكل التوقعات، لاق الفيلم نجاحاً باهراً وأصبح نك مشهوراً جداً. كانت أديل ونك راضيين في تلك المرحلة. استطاعت أديل أن تتكيّف مع دوامات عمله

الغريبة ومع فكرة اختفائه لأيام عديدة ثم وصوله إلى المنزل غالباً من دون إنذار في الساعة الرابعة صباحاً. لو أنها عرفت إلى أين سيقودهما ذلك كله، لما شعرت بذلك السرور والإثارة تجاه ما يقوم به من أعمال.

في أحد الأيام، دخل نك إلى مكتبها كالإعصار وأعلن الخبر الكبير بابتسامة عريضة جداً على فمه. لقد حصل على عمل ضمن مشروع كبير في هوليود، هو عبارة عن فيلم يتضمن أحداثاً خيالية مستقبلية. أخبرها أن أمامه خمسة أيام فقط ليوضب أغراضه ويذهب إلى كاليفورنيا ليلتقي بالمخرجين، وإذا أحبوا عمله، يجب عليه أن يبدأ فوراً.

منذ ذلك الوقت بدأت الأمور تسير بطريقة خاطئة. انشغل نك كثيراً في الأشهر التالية، فشعرت أديل أنها عزباء مجدداً. كان الدليل الوحيد لعودته إلى المنزل هو تلك الرسومات الهشة على هوامش تقارير أديل، والتي كانت تراها حين تستيقظ صباحاً. بعدئذ أرادها نك أن تترك وظيفتها وتنتقل معه عبر العالم. لكن شعرت أديل، ولأول مرة في حياتها أن لديها جذوراً، بيتاً وهدفاً. لا مجال لأن ترمي ذلك كله خلف ظهرها لمجرد نزوة. آن الأوان كي تعارضه وتتمسك برأيها. وقع بينهما شجار كبير، هو الأسوأ بين شجاراتهما، حيث وضعا النقاط على الحروف. وحتى حين صرخت أديل: «اقبل بالوظيفة السخيفة إذا كنت تظن أنها مهمة حقاً»، لم تتوقع أن يأخذ كلماتها على محمل الجد، ويغادر على متن أول طائرة.

صوت منى أعاد أديل إلى الواقع مجدداً. قالت لها: «هيا، يا فتاة! عليك أن تتحلّي بالقوة».

أجابتها أديل بصوت بائس: «أنا قوية».

على الأقل هذا ما أرادت أن تكون عليه. لكنها في الواقع بدت منهكة بعد تظاهرها بالشجاعة لشهور طويلة من دون نك. الفترة اللاحقة لمغادرته المنزل بدت الأسوأ في حياتها، وهي لن تعطيه الفرصة ليعيدها إلى وحدتها ومعاناتها. سوّت أديل جلستها أكثر وقالت: «لا. أنتِ محقّة. من يحتاج إلى الرجال؟ سحقاً لهم!»

– والآن، ماذا ستفعلين مع ذاك المتهوّر الذي يغفو في مطبخك؟

سوف تجعله يجلس بانتظارها حتى الأسبوع القادم!

يا لها من فكرة مثيرة! يجب عليها أن تشجّع ذلك الشعور وتجعله ينمو ويصل إلى أوجه، فلا تفعل ما تتوق جداً إلى فعله... وهو الاستعجال للوصول إلى المنزل كي تراقبه أثناء نومه، ثم تعانقه حتى يستيقظ فتعبّر له عن اشتياقها. لكنها لا تستطيع أن تضعف هكذا... لا... لن تفعل!

قام نك بما وعد ألاّ يفعله البتّة: لقد تركها. حسناً! لن تعطيه الفرصة ليؤذيها بالطريقة نفسها مجدداً. على الأقل، هذا ما فكر به عقلها، أما قلبها فلديه برنامج مجنون خاص به.

هزّت أديل رأسها، وقالت: «أفترض أنه يجدر بي أن أذهب وأتكلم معه في وقت ما، إلاّ أنني لا أستطيع أن أواجهه الليلة. فحين يواجهني نك دون أن أكون مستعدة، ينتهي الأمر بي دائماً إلى الموافقة على أحد مخططاته. لذا أحتاج لأن أكون مستعدة، وقادرة على التركيز».

إنها لا تستطيع أن تدعه يدرك أنه لا يزال يملك تلك القوة التي تجعلها ترتجف كلما اقترب منها، فقد يستعمل هذه القوة ضدها، ثم يجعلها تعتقد أن الأمل بعودتهما إلى بعضهما موجود ويفشل الخطة التي وضعتها لحياتها. تحتاج أديل إلى حماية نفسها. عليها أن تجعل نك يعتقد أنها محصنة تجاهه كلياً، ومن المستحيل أن تقنعه بهذا الليلة. إنها لا تزال تحت تأثير الصدمة.

قالت منى: «ابقي هنا الليلة».

– شكراً! أنتِ منقذتي.

حملت منى بيثاني التي بدأت تبكي بكاءً هادئاً، ثم وقفت وقالت: «تعالي يا صغيرتي. حان وقت النوم».

استدارت مباشرة قبل أن تخرج من باب غرفة الجلوس، وسألتها: «هل يعرف عن... تعرفين؟»

شبكت أديل أصابعها ببعضها البعض وشدّتها حتى آلمتها مفاصلها، وأجابت: «لا! لم أخبره».

٢ - تحت جنح الظلام

أحسّ نك بيد تلمس وجهه فاستيقظ على الفور، وما لبث أن أدرك أنّ اليد يده. لقد وضع مرفقه خلف رأسه فيما كان نائماً، فأصاب الخدر يده.

كانت الأضواء لا تزال منارة في المطبخ، لكن الظلام دامس في الخارج، ولم تكن لديه فكرة عن الوقت. هزّ يده الخدرة حتى شعر بالدم يخزه ثم نظر إلى ساعة يده. إنها السادسة صباحاً!

هزّ رأسه ذات اليمين وذات اليسار، ونظر ثانية. لا عجب أنه يشعر بالتيبس، فقد أمضى الساعات الاثنتي عشرة الأخيرة على أريكة ذات مقعدين فقط، والله يعلم ما هي الوضعيات الغريبة التي اتخذها جسمه أثناء النوم. سوف تستيقظ أديل في غضون ساعة تقريباً. لطالما كانت تستيقظ باكراً، فطبيعتها النشيطة تختلف تماماً عن طبيعته المتكاسلة صباحاً.

شعر نك أنه موهن ومنهار، ليس بسبب المكان الغريب الذي نام فيه فحسب، بل أيضاً بسبب رحلته الطويلة من لوس أنجلس في اليوم السابق. لا جدوى من إجراء حديث لطيف مع أديل إذا كان مظهره فظاً ورائحته بشعة. من الأفضل أن يستحم ويتأنّق قبل أن يحاول التحدّث إليها. جرّ حقيبته إلى الأعلى على الدرج، ودخل غرفة النوم الإضافية. عليه أن يتصرف بطريقة ذكية إذا أراد أن يستجلب أديل إلى جهته، فهو ليس سخيفاً ليعتقد أن بامكانه أن يعود فجأة إلى حياته القديمة كأن شيئاً لم يكن. أمِل أن يتمكنا من استرجاع حياتهما معاً، فقد كانا سعيدين جداً. لحظة واحدة من الغضب المتهوّر كلفته فشل زواجه. ليس من عادة نك أن يفقد أعصابه، إلا أن أديل حرّضته وحرّضته حتى انفجر غاضباً. تبين له بعد ذلك أن طريقته الاعتيادية في تجاهل

كل ما هو سلبي وإدلائه بالأجوبة البارعة حتى ينجلي الضباب هما الخيار الأكثر أماناً. لو أن هذا ما فعله في شهر أيار الماضي، لربما تغيّرت الأوضاع. لما كان عليه أن يعيش مع هذا الألم العميق الذي لا يزول في داخله.

بعد نصف ساعة، كان نك قد حلق ذقنه وارتدى ثيابه وبدأ يحضّر القهوة في المطبخ. تتمثل خطته في أن يصطاد أديل بتقديم قهوتها الصباحية لها. يعرف نك كل الحيل الصغيرة التي تؤثر في زوجته، وقد استخدمها عدّة مرّات فأصبحت تلك عادة لديه.

بالطبع، عليه أن يكون أكثر حذراً هذه المرة، فالأمر أكثر جدّية من المرات السابقة. تذكر ذلك اليوم حين استعمل أفضل كسرولة لديها في المطبخ ليمزج عصارات غريبة من النباتات فالتصقت بقعر الكسرولة. لم تعجب أديل بلون الطعام الأخضر لاسيما أن آثاره لم تزل مهما حفّت بقوة. تعلم نك أخيراً أن يتجنّب أدوات المطبخ لديها، فهي دقيقة جداً في ما يتعلق بذلك المكان. سيكون حساساً هذه المرة فيتكلم بطريقة لائقة معها. هذه هي الخطة الأولى، ثم عليه أن يجعلها توافق على الخطة الثانية التي يأمل أن تقوده إلى تحقيق الخطة الثالثة. أما الخطة الثالثة فهي الأكبر: أن يجعلها تدرك أنهما خلقا لبعضهما. لا يمكنه أن يفشل في الخطة الأخيرة، لذا عليه أن يفعل ما بوسعه لينجح. لا بأس إذا مهّد للأمر قليلاً... مع الكافيين والابتسامات والغمازتين.

شغّل نك آلة صنع القهوة وجلس إلى الطاولة مواجهاً للباب. قد تظهر أديل في أي لحظة الآن. إلا أن أديل لم تظهر، و الصبر ليس إحدى ميزات نك. ربما ترغب زوجته في تناول الفطور في السرير! أم أن افتراضه ذلك يبدو مبالغة في التملّق؟ قبل مغادرة نك، لم تطق أديل البقاء مطولاً في السرير صباحاً حتى الآحاد. إلا أنها كانت تفعل ذلك أحياناً إن كان نك موجوداً وأقنعها بأن البقاء في السرير يستحق ذلك. أسند ظهره إلى الكرسي الخشبي وهو يشعر بالاحباط. لقد اشتاق إلى أديل... حقاً اشتاق إليها. حين عاد إلى كاليفورنيا بعد أول رحلة له إلى المنزل، فاجأه أن غليان الغضب في داخله استمر لوقت طويل. لم يستطع أن يتخلص منه كالمعتاد.

قد يشعر أي إنسان بالغضب إذا ما أنهت زوجته علاقتها معه بعد أول شجار بسيط بينهما. كان بإمكانهما التوصل إلى حل معقول بشأن وظيفتهما وعقده الممتد على مدى ستة أشهر في هوليود. إلا أن أديل راحت تصرخ في وجهه مدافعة عن أهمية وظيفتها وحياتها وأصدقائها. بدا الأمر كصدمة فظيعة لنك، إذ أدرك أنه يأتي في أسفل القائمة... هذا إذا كان موجوداً عليها أصلاً. كانت وظيفته مهمة بالنسبة إليه أيضاً، لكن أديل لم تأخذه على محمل الجد. يومها تخلف أحدهم عن تطبيق العقد فسنحت له الفرصة في الدقيقة الأخيرة للعمل مع المخرج المعروف بإبداعه تيم بروكمان. بدت تلك فرصة لا يستطيع رفضها، وآلمه كثيراً أن أديل لم تثق به كفاية لتؤيد قراره.

أصبح الانزعاج يقض مضجعه. إنها الثامنة والنصف. بالطبع، أديل لا تبقى نائمة حتى هذا الوقت! من الأفضل أن يذهب ويتأكد أنها بخير. هرع نك صعوداً على الدرج، لكنه خفف سرعته وهو يقترب من غرفة نومهما. ابتسم حين تذكر الشخير الهادىء الذي يصدر عنها أحياناً. بدا له هذا الأمر لطيفاً جداً، ومن الغرابة أنه شعر بالرضى لمعرفته أن أديل المثالية تعاني من خطب ما. إلا أنه لم يسمع أي شخير في تلك اللحظة. في الواقع، لم يسمع أي صوتٍ البتة. دفع الباب ليفتحه وطرف بعينيه فيما رأى الغرفة مشعة على غير عادتها. بدت الستائر مفتوحة وشمس شباط الباردة تملأ الغرفة الفارغة بنورها. كانت الأغطية موضوعة بأناقة في موضعها، والوسادات مصفوفة بانتظام كالعادة على رأس السرير. شعر بالاضطراب في معدته، تماماً كما حصل حين دخل إلى الغرفة قبل سنة تقريباً ورأى خزانة الثياب فارغة، والأبواب مشرعة وتعاليق الثياب عارية، ثم وجد الملاحظة المهذبة التي تقول فيها إنها سوف تبقى عند منى وهي لا تريد رؤيته. يومها عاد إلى أميركا مباشرة تاركاً زوجته التي تخلصت منه بسهولة. على الأقل، نجح في إقناع منى أن تجعلها تنتقل مجدداً إلى المنزل بعد رحيله.

سار نك نحو خزانة الثياب ودفع الباب بقوة ليفتح. اندفعت أنفاسه بقوة من رئتيه ما إن وجد صف السترات والقمصان والفساتين مصنفة حسب

النوعية والألوان. لطالما تميزت أديل بطبعها المحب للتنظيم والترتيب. شعر بالارتباك، فثياب أديل موجودة إلاّ أنها هي نفسها غير موجودة. استدار وتوجه مجدداً نحو الدرج، وما إن وصل إلى الرواق حتى سمع الباب الأمامي ينفتح.

تراجعت أديل إلى الوراء مجفلة. أصبح وجهها أحمر كالنار، وظهر عليها الارتباك على غير عادتها. طرأت على ذهن نك فكرة مرعبة: «هل أمضيت الليل كله في الخارج، أديل؟»

تحسّست أديل بأصابعها جريدة الأحد المندسّة تحت ذراعها. وأجابت: «أظن أن هذا ليس من شأنك. أليس كذلك؟»

ليس من... ؟ كم بدت هذه العبارة سخيفة!

- أنتِ ما زلتِ زوجتي!

أعادت أديل طي الجريدة ورمقته بنظرة قاسية ومطولة، ثم قالت: «حسناً! يمكننا أن نجد حلاً لهذه المسألة».

شعر نك بشرارات غير طبيعية من الغضب تتصاعد أمام عينيه، وفاجأه أن هذا الأمر ما زال يحصل معه بعد مرور هذا الوقت الطويل. دفعه الغضب إلى الخروج من المنزل. اندفع نحو الحديقة وسار إلى مشغله، ثم أغلق الباب خلفه.

ليس من شأنه؟! كان عليه أن يبقى ليناقش هذه المسألة، إلاّ أن رجليه تحركتا قبل أن يبدأ ذهنه بالتفكير. لم يعد يشعر بالرغبة في العودة إلى المنزل الآن، على أي حال.

كانت أديل تعمل على الكومبيوتر النقال حين عاد نك. بدا أن توترها ما زال متوهجاً بعد مواجهتهما في الممر. هذه المواجهة هزت كيانها تقريباً. لكنها في نهاية المطاف استطاعت أن تستجمع قوتها. لن يعرف نك مطلقاً أنها كانت على وشك أن تعانقه لتلطف غضبه. حاولت أن تتظاهر أنها ليست واعية لوجوده وهو واقف على مدخل الغرفة الصغيرة التي يستعملانها كغرفة مكتب. أخيراً قالت، من دون أن ترفع بصرها نحوه: «أنا مشغولة، نك».

- علينا التحدث في وقت من الأوقات.

هزّت أديل كتفيها وحاولت أن تركّز على الكلمات الموجودة على الشاشة. لم تبدُ أية واحدة منها مفهومة على الإطلاق. قرأت الجملة ثلاث مرات، ثم استسلمت: «حسناً! لنتحدث».

استدارت في كرسيها، ثم قالت: «أنا جاهزة للإجابة عن أسئلتك».

هز نك رأسه، ثم قال: «لن ينجح الأمر بهذه الطريقة. دعينا نذهب إلى منطقة محايدة. ما رأيك لو دعوتك إلى الغداء؟»

لطالما أحبت أديل أن تمضي أيام آحاد طويلة وعابثة وهي تتناول الغداء مع نك. لم تشأ أن يذكرها بتلك الأيام السعيدة، لكنه محق. عليهما أن يتكلما في وقت ما، ولا يمكنها أن تتهرّب من الموضوع.

- حسناً! لكن على حسابك.

- بالطبع!

- ما الأمر إذاً، نك؟

جلسا ولم يتكلما في صلب الموضوع طوال فترة تناولهما وجبتهما. لم تعرف أديل إن كان هذا أمراً جيداً أم لا. أصبحت دقّات قلبها غير مستقرة حين فكّرت بكلمة الطلاق التي قد تصدر من فمه في أية لحظة. من الغرابة أنها الكلمة الأخيرة التي أرادت سماعها، بالرغم من أنها الكلمة التي احتلت تفكيرها منذ الصيف الماضي.

أجاب نك وهو يعبث بالبطاطا في صحنه: «ستبلغ أمي عامها الخامس والستين هذه السنة».

هزت أديل رأسها وقالت: «أعرف».

ثم قطبت جبينها. بِمَ تراه يفكر؟ انحنت إلى الأمام وحاولت التقاط نظرته. بدا نك مأخوذاً بتجميع حبات البازيلا في كومة صغيرة بواسطة سكينه.

- كيف حال ماغي؟

بدت ماغي ضعيفة بعد رحيل نك، وعرف الجميع أن التواصل معها غير مجد. فاتخذت أديل ذلك ذريعة لتقلل من تواصلها مع العائلة قدر المستطاع. صحيح أنها كتبت بسرعة بعض الرسائل الإلكترونية وأرسلت بطاقة معايدة

بمناسبة عيد الميلاد، إلا أنها تجنبت الرد على الرسائل على المجيب الآلي، متظاهرة أنها منشغلة جداً بعملها. وفي الأشهر القليلة الماضية سار كل شيء بطريقة هادئة. أما الحقيقة فهي أنها كانت خائفة، خائفة جداً. فهي ونك منفصلان، وقد تعاملها أخواته وأمه ببرودة الآن، تماماً كما فعل والداها.

قام نك بوكز كومة حبات البازيلا بسكينه ما جعلها تتناثر في صحنه، وقال: «تعرفين أمي...».

حاولت إخفاء شعورها بالخجل بعد أن أدركت أنها تصرفت مع أمه بسخافة وجبن. عرفت أديل أم نك أكثر مما عرفت أمها، وذلك ليس مستغرباً، فآخر مرة رأت فيها والديها بالعين المجردة كانت قبل ثلاث سنوات. هذا ليس أمراً غير اعتيادي، فذلك ما كان عليه الوضع مذ أرسلاها إلى المدرسة الداخلية، كي تتمكن أمها من السفر حول العالم مع أبيها وهو ينتقل من مكان إلى آخر بسبب عمله.

ماغي هيوز هي من نوع النساء اللواتي تمنّت أديل أن تكون لها والدة مثلهن وهي في عمر المراهقة. منزلها ممتلىء دائماً بالأطفال والأحفاد الذين يتذمرون على الدوام لأنها تتدخل في كل شاردة وواردة من أمورهم، إلاّ أن هذا لم يمنعهم من المجيء إلى منزلها. إنها امرأة ذات قلب كبير، ولطالما كانت حريصة على أن تشعر أديل أنها فرد من أفراد العائلة. مع أنها تتساهل قليلاً مع ابنها الوحيد، لكن ما من أحد مثالي. أليس كذلك؟

- بلغها تحياتي الحارة حين تكلمها.

سعل نك وقال: «حسناً! أظن أنك تستطيعين إبلاغها إياها بنفسك».

- ومتى ترغب بأن يحصل هذا؟ لا أظنك نسيت -مع كل أعمالك الناجحة في هوليود- أنها انتقلت للعيش مع العمة بيفيرلي السنة الماضية. أليس كذلك؟ سكوتلندة بعيدة جداً لتقصدها من أجل كوب شاي وحديث.

- إنها تحضر لحفلة عيد ميلاد كبيرة. شارلوت تنظم هذه المناسبة، وبالطبع اضطرت أخواتي إلى المشاركة في التنظيم.

استطاعت أديل أن تتخيل الأمر. لنك ثلاث أخوات أكبر منه سناً، وهن

يشكّلن قوة هائلة معاً. نقطة ضعفهن الوحيدة هي حبهن لأخيهن الصغير. سمعت أديل الكثير من القصص عن المآزق التي ورّط نك نفسه فيها وهو صبي صغير.

- وما علاقة هذه الحفلة بي؟

نظر نك إلى أديل من تحت خصلة الشعر العاصية، وقال: «أمي تريدك أن تأتي... في الواقع هي تصّر».

- لماذا؟

لطالما كانت ماغي حسّاسة ومراعية لمشاعر الآخرين. أضافت أديل: «لا شك أن وجودنا نحن الاثنين في الحفلة سيجعل الأمر مربكاً، فلِمَ تريد أن تخاطر بليلتها الكبرى؟»

- همم... هنا لُب الموضوع. أنا لم أخبرها حقاً عن... عنّا.

أحسّت أديل بطوق التوتر على جبينها يشتد أكثر فأكثر، فاستفسرت: «عنّا؟»

- عن... تعرفين... مشاكلنا.

تمايل الصحن أمام عيني أديل، وشعرت بذلك الاحساس البغيض؛ ها قد فعلها ثانية وتهرب من مواجهة وضع صعب، تاركاً لسواه معالجة الأمور. عبّرت تلك الابتسامة المغرورة الملتوية عنه تماماً. لطالما لجأ إلى ابتسامته تلك حين يعرف أنه فعل شيئاً يثير غضبها. استجمعت أديل قواها كي لا تحمل الصحن وتسكب مكوناته على رأسه. شعرت أنها تستحق ميدالية لتمكنها من الوقوف والمشي بصلابة إلى خارج المطعم بصورة عفوية من دون أن تنهار. سحبت نفساً من هواء الشتاء ملأت به رئتيها آملة أن تهدأ أعصابها قبل أن يلحق بها نك. إنها لا تريد أن تفتعل شجاراً غاضباً في موقف السيارات في بارتريدج. ما حصل الآن هو مثال نموذجي عن تصرفات نك! عرفت مسبقاً أن هذا الحديث لن يجدي أي نفع، ورغم ذلك رافقته طوال الطريق كأي تلميذة من الصف الأول.

رأت أديل لمحة من سترة جلدية بنية اللون من زاوية عينها، فعرفت أن نك

نجح في دفع الفاتورة واللحاق بها. حسناً! إنها ليست مستعدة للتحدث معه الآن. من حسن الحظ أنهما قررا أن يمشيا نزولاً على الطريق لتناول الغداء في أقرب مطعم، ما يعني أنهما يحتاجان إلى عشر دقائق للوصول إلى المنزل. مشت بتشامخ وغضب باتجاه المنزل، ستصل إليه في غضون ثمانِ دقائق إذا استمرت في السير بهذه السرعة.

استطاع نك أن يرى أديل تمشي متشامخة من موقف السيارات فتبعها. أراد حقاً أن يعدو بأقصى سرعته، إلاّ أن صوتاً خفيفاً داخل رأسه نبهه أن من الأفضل له أن يترك زوجته تهدأ قليلاً، فتقبل الأمر ومشى خلفها ببطء. يا إلهي! مضت دقيقة تقريباً قبل أن ينجح في الوصول إلى مسافة مقبولة ليستطيعا التحدث.

- أديل!

لم تستدر أديل حتى، بل رفعت يداً باتجاهه وحسب.

- هيا، أديل! أرجوك؟

كان عليها أن تتوقف في تلك اللحظة لتقطع الطريق، فاستطاع أن يصل إليها.

بدأ نك بفتح فمه، فحذرته أديل قائلة: «لا تفعل! لا تفعل فحسب».

فأقفل فمه مجدداً.

- لا أصدق أنك ظهرت هنا بعد تسعة أشهر من انقطاع الاتصال معك لتدعوني إلى حفلة عيد ميلاد.

ضحكت أديل وهزّت رأسها قبل أن تضيف: «هذا مستوى جديد من عدم الاحساس، حتى بالنسبة لك».

مهلاً لحظة! كم من المرّات اتصل فيها نك وحاول الاعتذار بعد رحيله؟ كم من المرّات أقفلت بعنف المجيب الآلي قبل أن يتمكن من التلفظ بكلمة واحدة؟ إن لم يتمكنا من التواصل لمدة تسعة أشهر، فالسبب يعود أكثر لأديل منه لنك. لقد حاول على الأقل. في نهاية المطاف، استسلم وحقق لها ما تريده، فتركها وشأنها. فهل تلومه على ذلك؟

- حسنا! ربما أنت تملكين كل الأجوبة أديل، إلاّ أنني لا أملك واحداً.

تراجعت أديل عن الحاجز الحجري عند حافة الطريق ونظرت إليه، ثم قالت: «ماذا تعني بهذا؟»

- ما أعنيه هو أنني أنا نفسي لست واثقاً مما يجري بيننا. ما هو وضعنا؟ هل انفصلنا، أم أن تلك كانت فترة تهدئة طويلة بعد الشجار؟ إذا كنت أنا نفسي لا أعرف الجواب، كيف يفترض بي أن أعرف ماذا يجري في رأسك الصغير المنظم الذكي.

هزّت أديل رأسها وقطعت الطريق. كان على نك أن ينتظر مرور سيارتين قبل أن يلحق بها ثانية.

- ماذا قلتِ إذاً للناس، أديل؟ ما هي القصة التي أخبرتها لهم؟

صمت نك، فهو يعرف ما الذي قالته بالضبط لأصدقائها. لا بد أن مني حصلت على كل تفصيل، وما من شك أن نك هو الوغد الشرير في نظرها فيما أديل هي الطاهرة النقية. مشى خلفها صامتاً. عليه أن يصغي إلى غريزته التي يثق بها، فيدرك أن أديل ليست في مزاج مؤاتٍ حتى لتفسيرات منطقية.

انتظرها لتقفل الباب الأمامي، وقد بدت شرارات التوتر المتطايرة منها ملموسة تقريباً.

قالت أديل بعد أن مشت تاركةً الباب مفتوحاً: «سأصعد إلى الطابق العلوي».

دخل نك خلفها وأقفل الباب. ذهب إلى غرفة الجلوس وشغّل التلفزيون. لربما يستطيع أن يغفو أمامه.

ستهدأ أديل حالاً. لطالما فعلت ذلك. على الرغم من أنها سريعة الغضب، إلاّ أن غضبها يزول عادةً بسرعة أيضاً. شغّل نك التلفزيون وجلس في كرسيّه المفضل ذي الذراعين. سيشاهد مباراة كرة القدم لمدة خمس عشرة دقيقة، ثم سيحضّر لها كوب شاي كوسيلة للتهدئة، وسيرى ما إذا كانا سيستطيعان التناقش في الموضوع من دون التسبب بحرب عالمية ثالثة.

بعد حين، كان قد سحب نفسه من الكرسي وشرع بتسخين الابريق

الكهربائي حين سمع أديل تنزل على الدرج أو... ليكون أكثر دقة، سمع أصوات ارتطام ثم ضربة مكبوتة تلو أخرى. بدا له كأن شخصين يقفزان على الدرج معاً. وصل نك إلى الممر في الوقت المناسب ليجد أن أديل تجاهد وهي تسحب حقيبته على الدرجات الثلاث الأخيرة.

- أديل! بحق السماء، ماذا تفعلين؟

توقفت أديل عمّا كانت تفعله لتعطيه جواباً وتلتقط أنفاسها. شعرت بألم في ذراعيها. كيف يمكن لمجموعة من القمصان المجعدة أن تكون بمثل هذا الوزن؟

- أظن أنّ هذا واضح جداً. أليس كذلك؟ أنا أطردك.

النظرة التي ظهرت على وجهه بدت مضحكة، ولو لم تكن ترغب بقتله، لضحكت من منظره.

أحسّ نك بالارتباك التام. يبدو أنه ارتبط بامرأة ترفض أن تتنازل.

- لا يمكنك طردي، فأنا أعيش هنا أيضاً.

- ليس بعد الآن. يمكنك إيجاد مغفل آخر تقنعه بمخططاتك الطائشة.

اضطربت معدة أديل وأدركت معنى كلماتها. هل هذا حقاً ما أوصلتهما إليه أربع سنوات من الزواج؟ نظرت إلى نك ورأت أن الغمازتان اختفتا من وجهه، فانتقل الغثيان إلى أخمص قدميها.

- أنا آسف، أديل! أنا حقاً آسف! كان يجب عليّ أن أقول لأمي... شيئاً.

هزّ رأسه وأكمل: «لكنها تحبّك مثل ابنتها ولم أرِد إغضابها. هي ليست...».

ابتلع نك بقية جملته. شعرت أديل بقلبها ينعصر فيما جاهد ليجد الكلمات.

- إنها... أعني، ستشعر بالحزن حقاً لأجلنا. لم أشأ أن أخبرها حتى أتأكد أنه ما من أمل لعودتنا معاً.

ما من أمل؟!

ارتجفت شفة أديل، وضغطت فمها في خط رفيع لتخفي ذلك. ابتسم نك لها ابتسامة ندم. والآن، ها هي الابتسامة التي تسبب الأذى... ابتسامة

مؤثرة جداً و معذّبة للقلب. بدأت بعض الأمور الغامضة تتضح. ألم يقل إنه لا يعرف كيف يعرّف علاقتهما؟ أهذا يعني أنه لم يقرر بعد، وأنه لا يريد الطلاق بعد كل ما حصل؟ حتى لو فعل، لمَ عليها أن تعاقب ماغي لأن ابنها هجر زوجته؟ بالرغم من عدم وجود بصيص من الأمل لعلاقتهما، فإن أديل لا تريد أن تسبب الألم لعائلته.

أخذت نفساً عميقاً وزفرت بقوة مرة أخرى. العائلة! طيلة السنوات الأربع الماضية كانت أديل فرداً من عائلة رائعة. تلقت خلال تلك السنوات اتصالات معايدة لمناسبة عيد ميلادها، وحضرت مناسبات غداء صاخبة وحاشدة أيام الآحاد، تخللها الكثير من الطعام والقليل من مجال الحركة. سيبدو عالمها فارغاً بشكل فظيع حين ينتهي ذلك كله إلى الأبد. أغمضت أديل عينيها. لا! عليها أن تتمتع بالقوة. لا تستطيع أن تضعف الآن. عليها أن تركز على تلك الحقيقة مرة أخرى؛ إنه يطلب منها أن تستغني عن كل شيء وتتبعه. لاشيء يضمن لها أنه لن يتركها مجدداً بعد انتهاء كل شيء. لم يقل إنه يريد أن يعودا إلى بعضهما. أليس كذلك؟ ما يريده هو الهروب من الموقف الصعب. حسناً! ليس لديه فكرة عن العذاب الذي مرت به بعد رحيله.

فيما استند نك متكاسلاً إلى إطار الباب، سمحت أديل للظلمة أن تغذي غضبها حتى صار مهتاجاً وقوياً. سحبت حقيبته مسافة قصيرة نحو الباب الأمامي ورمتها إلى ممر الحديقة. وحين أطلق نك صرخة مخنوقة واندفع خلفها، أغلقت أديل الباب بقوة وراءه وأقفلته.

* * *

نقرت أديل الزر في آلة التحكم عن بعد مراراً وتكراراً؛ رؤساء، طهاة مشهورون، أسوأ الحوادث المؤسفة، ونجوم البوب العشر الأوائل الذين لا تعرف أياً منهم... لمَ لا تعثر على أي برنامج مسلٍ على التلفزيون؟ هناك أكثر من خمسين قناة لتختارَ بينها، بحق السماء! لا بد من وجود شيء مثير للاهتمام على إحداها. مرت الساعات وأصبحت الساعة الثالثة صباحاً. عادةً ما تكون مندسة في السرير قبل بضع ساعات، لكنها الليلة لم تستطع أن تهدىء من روعها

حتى لتصعد على الدرج وترتدي بيجامتها. شعرت بارتياح غريب وهي جالسة في الظلام من دون رفقة سوى ومضة ضوء التلفزيون.

رمت أديل آلة التحكم عن بعد على وسادة الأريكة بجانبها، وحاولت التركيز على البرنامج الكوميدي الذي توقفت عنده. ليس من السهل أن تتجاهل أنها أحبّت نك. ما كانت لتشعر بنصف هذا الاحباط لو لم تحبه. مهما حاولت أن تخدع نفسها بالقول إنها ستتشله من قلبها ومن منزلها، فذلك في الواقع كلام فارغ. نك موجود هناك على الدوام. لكن هذا لا يعني أنهما قادران على تأسيس حياة مشتركة، فلكل منهما أولويات مختلفة. بل إن الأمر يتعدى هذا لأنهما مختلفان أشد الاختلاف. تساءلت أديل كيف تمكنت علاقتهما من الاستمرار لأربع سنوات، أو بالأحرى لخمس سنوات إذا احتسبت السنة التي أمضياها معاً قبل زواجهما. آه... ! كذلك تلك السنة السابقة لها، حين راح نك يلاحقها باستمرار فيما كانت هي عازمة على الرفض، حتى أحبط عزيمتها وجعلها تقع في حبه.

راح الضوء على الجيب الآلي للهاتف يومض، وشرع قلبها في التخبط في صدرها بسرعة. أهو نك؟ نقرت الزر وانتظرت الرسالة.

- مرحباً، نك! هذه ديبي.

إنها أخته الثانية...

- اعتقدت أمي أنك عدت الآن. آمل ألا تكون مرهقاً من السفر. على أي حال، أبعث هذه الرسالة لأخبرك أن أمي هي في المرحلة الأخيرة من علاجها الكيميائي، وأن كل شيء جاهز للحفلة. اتصل بي وسأطلعك على المستجدات.

أخبر أديل أن بانتظارها قالب حلوى بالشوكولا كتب عليه اسمها.

علاج كيميائي؟!

أتعاني والدة نك من السرطان؟ بدا لها كأن العالم كله يدور من حولها. لا يمكن لماغي أن تصاب بالسرطان، فهي مرنة وحيوية جداً. لِمَ لم يخبرها نك بالأمر؟

لأنك لم تعطيه فرصة لذلك قط! هذا ما همس به صوت في أذنيها. كنت

مشغولة جداً بإحساسك بالأسف على نفسك. طردته من حياتك فيما كنت حزينة جداً، وعندما أصبحت جاهزة لتصغي إليه كان قد استسلم. شعرت بتوق شديد لتتصل به عبر الهاتف. أحسّت أنها محطمة وأنها سوف تتألم إذا ما خاطرت وخسرته مجدداً. ماذا لو رفضها؟ ليتها تستطيع أن تتصل به الآن... لا بد أنه يشعر بإحساس مروّع... لكنها أقفلت الباب في وجهه من دون أن تعرف مكان توجهه، وليست لديها أي فكرة عن كيفية الاتصال به.

غرقت في الأريكة وأطفأت التلفزيون. كان الظلام يسيطر على الغرفة، لكنها جلست تحدّق إلى الفراغ لمدة بدت لها ساعات. بعدئذ سمعت صوت خشخشة قادم من الباب الأمامي، فالتقطت أنفاسها. لا بد أنها الريح. بالطبع! جاهدت لتسمع أكثر، إلا أن الهدوء ساد ثانية. كانت أديل على وشك أن تتنفس الصعداء حين سمعت الصوت ثانية. هذه المرة لم يكن الصوت مجرد خشخشة. استطاعت أن تسمع القفل يدور. آه، نعم! للباب قفلان. اقشعر بدنها وهبطت معدتها هبوطاً عنيفاً، إلا أنها لم تستطع أن تتحرك. جُلّ ما استطاعت فعله هو أن تتكور في زاوية الأريكة محاولة أن تخفف من سرعة ارتفاع وانخفاض حركة صدرها. لو أن نك هنا الآن! لِمَ لم يحدث هذا في الليلة السابقة حين كان نائماً في المطبخ؟

ثم جاء الصوت الذي تخاف منه: سمعت صوت القفل الثاني يطقطق، ثم سمعت الباب ينفتح. التقطت أديل أنفاسها، وقامت عن الأريكة بقدر ما أمكنها من هدوء واختبأت خلف الكرسي ذي الذراعين.

أحدهم دخل إلى المنزل! بدأت أديل ترتجف. الهاتف! أرادت أن تصل إلى الهاتف. إلا أنه كان في الجهة الأخرى من الغرفة، فيما الدخيل يتنقل عبر الرواق متجهاً نحو باب غرفة الجلوس، لذا لم تستطع أن تخاطر. حتى لو استطاعت أن تزحف إلى هناك وتصل في الوقت المناسب، فهو سيسمعها حين تتكلم عبر الهاتف.

ألقت أديل نظرة من فوق ذراع الكرسي فيما تحرك باب غرفة الجلوس فوق السجادة، ثم تحرك خيال نحوها، فتجمّدت في مكانها.

٣- فلتكن الحرب!

تحسس اللص الجانب المحاذي لذراع الكرسي. بدا قريباً جداً، حتى إن أديل شعرت بدفء الهواء بسبب أنفاسه الدافئة. لم يجد الدخيل ما كان يفتش عنه، فحرك ذراعه ليصل إلى الجانب الخلفي للكرسي حيث كانت أديل مختبئة.

قامت أديل بالشيء الوحيد الذي فكرت فيه. لم يكن الرجل يضع قفازين، وحين أصبحت يده على مسافة بضع سنتيمترات فقط من وجهها، اندفعت إلى الأمام وغرزت أسنانها في معصمه.

أطلق الدخيل صرخة ألم، وقفز إلى الخلف فيما تعثّر برجله.

- بحق السماء...!

بدت أديل مستعدة لأن تخدش وتعضّ وتركل، وتفعل أي شيء يخطر في بالها لتخرج من هناك بأمان. ما إن وضعت رجلها على ذراع الكرسي، وباتت جاهزة لتقفز فوقها لتصل إلى خارج الباب حتى لاحظت أن اللص فقد توازنه.

اقشعرت الشعيرات في مؤخرة عنقها عندما عرفت ذلك الصوت.

- نك؟

سمعت حركته وهو يحاول الوقوف على قدميه.

- شكراً على الاستقبال الحار، حبيبتي!

- ماذا...؟ ماذا تظن نفسك...؟

ارتفاع معدل الأدرينالين حوّل خوفها بسرعة إلى غضب.

- ماذا تفعل هنا بحق السماء؟ لماذا تتسلل خلسة إلى منزلي في منتصف الليل؟

- منزلنا!

- كُفّ عن التعليق على كل خطأ! أخفتني حتى الموت!

- كنت أبحث عن...

انحنى نك، وأضاء المصباح الموضوع فوق الطاولة، وأكمل: «...هذه و...».

اقترب منها والتقط محفظة جلدية كانت قابعة بالقرب من رجليها: «...وهذا».

كان الهاتف الخلوي على بعد بضعة إنشات أيضاً. نظرت أديل إليه. لم يكن ذلك الهاتف هو نفسه الذي كان يستعمله عادة. لسبب غريب، أشعرها ذلك بالحزن الشديد.

- أخرجتهما من جيب سروال الجينز في وقت سابق، واكتشفت أن من الصعب إيجاد مكان أبيت فيه من دون أيٍّ من أرقام هواتف أصدقائي ومن دون مالٍ للفندق.

شعرت أديل بالذهول، ولم تعرف ماذا عليها أن تقول. منذ دقيقة تمنّت أن يكون نك هنا، وها قد تحققت أمنيتها، وهي لا تزال جاهزة لتقذفه خارج الباب. سألته وهي ما زالت تحدّق بالهاتف: «كيف تمكنت من الدخول؟»

وضع نك يده على جيبه الخلفي، وتناول مجموعة من المفاتيح، ثمّ أمسك بها متدليةً من طرف إصبعه. فركزت أديل نظراتها عليها ببطء. هزّ نك كتفيه، وقال: «ظننت أنك في الفراش الآن».

- ألديك مفاتيح؟

- أجل!

شدت أديل جبينها حتى تجعد، وسألته: «إذا كنت تملك المفاتيح، لِمَ لم تستعملها حين دخلت إلى هنا من قبل؟»

- لا أعرف. أظن أنني حاولت أن أكون مهذباً.

نك يحاول أن يكون مهذباً؟! لم تستطع أديل أن تفهم هذا.

انقض على حياتها مجدداً، وحاول أن يخدعها للذهاب إلى حفلة على بعد مئة ميل، وكان مع ذلك قلقاً بشأن الدخول إلى منزله الخاص؟ بدا الأمر غريباً

جداً، ولم تستطع أديل حتى أن تستوعبه. فعلت الأمر الوحيد الذي استطاعت أن تفعله؛ انهارت على الكرسي وإحدى قدميها متدلية فوق حافتها. وسرعان ما وجدت أنها لا تستطيع أن تتمالك نفسها، فانهمرت الدموع على خديها.

نك هو الوحيد الذي يستطيع أن يجعلها تبكي. إنه رجل مستحيل!

هذه المرة لم يرسم نك ابتسامة عريضة على وجهه. ظلّ محدقاً بها وهو يطرف بعينيه. بدا ضائعاً جداً، وحين يبدو كذلك فإنه لا يقاوم. أطلقت أديل مشاعر الضيق في زفرة طويلة واحدة، وهزّت رأسها، ثم قالت: «لن تجد مكاناً تقضي فيه الليلة في هذه الساعة المتأخرة. تستطيع أن تذهب وتحضر أغراضك، وتضعها في الغرفة الشاغرة الإضافية. ستتكلم لاحقاً».

* * *

حين اندفعت أديل إلى المطبخ في الساعة السادسة والنصف صباحاً في ذلك النهار، وجدت نك جالساً إلى الطاولة بانتظارها.

توقفت فجأة، ومالت برأسها إلى جهة واحدة.

- أرى أنك استيقظت باكراً.

قبل ثلاث ساعات تقريباً مما اعتاد عليه.

- قلت إننا سنتحدث.

رفعت أديل طرف كم قميصها وتفحصت الوقت في ساعة يدها. وقالت: «لست مستعدة إلى التغيب عن العمل اليوم، نك. لن أوقف مسار حياتي من أجلك».

كشر نك، وأجاب: «أجل... أعرف هذا».

- ماذا يفترض بذلك أن يعني؟

حكّ نك زاوية إحدى عينيه بسبابته، وأجاب: «تجاهليني. أنا متعب ونكد الطبع، فالأشخاص العاديون مثلي لا ينهضون من السرير قبل الفجر ليجدوا شعرهم متناسقاً كأنه مصفف لتوه كما هو شعرك».

مع أن نك لم يكن مرتدياً ثيابه العملية، إلا أنه بدا جذاباً بما يكفي في بيجامته التي وضع أزرارها في العرات غير المناسبة لها، وشعره المبعثر في خمسة

اتجاهات مختلفة.

مهلاً! منذ متى يرتدي نك البيجامة؟ انحرفت أفكار أديل إلى ما يرتديه عادة في السرير، فزحفت موجة احمرار إلى عنقها واستمرت حتى وصلت إلى حدود شعرها. نظرت إلى تنورتها وقميصها ونعليها العاليين، ثم ملست شعرة غير مرئية نحو مؤخرة رأسها. ها هو يفعلها ثانية! أحياناً، يكفي أن يتواجد نك معها في الغرفة نفسها لكي تفقد سيطرتها على نفسها. حين نزلت على الدرج هذا الصباح شعرت بالثقة لتواجه العالم بأسره. أما الآن، فتشعر أنها... سخيفة جداً بملابسها الرسمية هذه.

- كل ما في الأمر هو أنني استيقظت وأصبحت جاهزة للذهاب إلى المكتب. بعضنا لا يستطيع أن يمضي الساعات محبوساً في سقيفة الحديقة حتى الساعة الثالثة صباحاً، ويعتبر ذلك عملاً.

تثاءب نك وغطى فمه بيده، ثم قال: «أنا متعب جداً للتحدث في هذا الموضوع مجدداً. هل نستطيع أن نعتبر أنني ولد يبلغ من العمر ثلاث سنوات وأنكِ الراشدة، فنستطيع حينها أن نتفادى الصراخ».

أرادت أديل أن تقول: لا! لا أريد أن أتفاداه. إلا أن هذا الجواب سيجعلها هي الفتاة ذات الثلاث سنوات، لذا قضمت لسانها وتوجهت إلى آلة صنع القهوة. ويا للمفاجأة! وجدت القهوة محضّرة مسبقاً.

نهض نك من حيث كان جالساً وأعطاها كوباً من القهوة.

- لا يفتح المكتب قبل الساعة التاسعة. لدينا وقت للتحدث.

فتحت أديل فمها لتتكلّم.

- أعرف أنك ترغبين في الوصول قبل الساعة الثامنة، لكن بالرغم من هذا، لدينا وقت كافٍ.

أغلقت أديل فمها مجدداً، وهزت رأسها موافقة. بالرغم من ذلك، حين جلست هي ونك في مواجهة بعضهما إلى الطاولة، عمَّ السكون في الغرفة. أخيراً، لم تستطع أديل أن تتحمل أكثر: «لِمَ لم تخبرني أن أمك مريضة؟»

هبط فكا نك، وسألها: «كيف عرفت؟»

- تركت ديبي لك رسالة على المجيب الآلي. أفترض أن أمك ليست الوحيدة التي لا تعرف أننا منفصلان منذ سنة تقريباً.

- تعرفين أن عائلتي متماسكة والجميع مقربون من بعضهم. فإذا ما عرف أحدهم بالأمر سوف ينقل الخبر إلى أمي، ولم أشأ أن أزيد متاعبها.

- كان يجب عليك إخباري.

نظر نك إلى أديل نظرة جانبية، وقال: «أتذكر أنك كنت تشيرين إلى انشغالك الدائم أثناء أحاديثنا على الهاتف».

- لا أقصد في ذلك الوقت، بل أقصد الآن. لِمَ لم تقل لي شيئاً البارحة؟

- بدا الأمر مثل... ابتزاز عاطفي.

أخذت أديل رشفة من كوبها، وقالت: «كنت لأسمي هذا إخلاصاً، في الواقع».

- أتقولين لي إنك ما كنت ستشعرين بالالتزام لتقومي بالرحلة، حتى لو كان ذلك آخر شيء تودين القيام به؟

أخفضت أديل بصرها، نك محق. كانت لتذهب إلى الحفلة سواء رغبت في ذلك أم لا لو أنها عرفت الحقيقة.

- حسناً! أصبحت أعرف الآن. أليس كذلك؟

لم تصل ابتسامة نك إلى عينيه. سألها: «ماذا ستفعلين؟»

أخذت أديل نفساً وجلست باستقامة، ثم أجابت: «أقترح أن نتعامل مع الموضوع كراشدين. سأذهب إلى سكوتلندة معك. أنا أحب أمك ولا أريد أن أغضبها، لكن...»

قفز نك من حيث كان جالساً وأخذ أديل بين ذراعيه، وهمس في أذنيها: «شكراً لكِ».

ثم أضاف: «أعني هذا حقاً. هذا سيعني الكثير لأمي. لا تعرفين كم أنا ممتن لك».

أرادت أن تخبره أنها تتفهمه حقاً لو لم يشدّها بقوة كبيرة، لمست يداها كتفي نك. أرادت أن تنشل نفسها من ذلك العناق إلاّ أن رائحته والإحساس الدافئ

بذراعيه حولها أخذا يؤثران على حواسها، فقد مضى الكثير من الوقت لم تعانق فيه أحداً. في الواقع، هي لم تعانق أحداً بكل ما للكلمة من معنى منذ غادر نك. صديقتها مني ليست رقيقة في عناقها، على خلاف الطفلة بيثاني وأخيها الأكبر جوش.

أمرت أديل نفسها أن تبتعد عنه وتفلت من بين ذراعيه بما أن قبضته صارت أقل شدّة، إلا أن رائحته بدت رائعة وملمسه دافئاً، فشعرت أنها ترغب في عناقه لثانيتين بعد. وبضع ثوانٍ بعد... أدركت أن اليدين المشدودتين أصبحتا منبسطتين على ظهرها. أخذت أصابعه تتحرك وتمسّد ظهرها بلطف، فاجتاحت عمودها الفقري رعشة. سمعته يتنشق الهواء، وكأنه يتنفس عطرها ولا يستطيع أن يكتفي منه. ملأت الدموع عينيها وتجمعت في رموشها السفلية. تاقت إلى أيام الجهل السعيدة، تلك الأيام التي اعتقدت أنها ستدوم إلى الأبد. في تلك الأيام بدت علاقتهما مميزة وملائمة، لكن من المؤسف أن الحقيقة تطفلت على ذلك الوهم. تراجع نك لينظر إليها، ورأت في عينيه توقاً لا يخلو من الألم. همس فيما أخفض رأسه ليعانقها مجدداً: «أديل!»

أرادت أديل أن تفلت من عناقه هذه المرة، لكنها لم تستطع ذلك لسبب ما. بدا كأنما قوة مغنطيسية جذبتها نحوه. لربما هي خدعة من فعل الذاكرة، أو لربما حصل هذا بسبب انتظارها لهذه اللحظة تسعة أشهر من دون أن تعرف، إلاّ أن هذا العناق بدا أفضل بكثير من تلك العناقات التي حاولت أن تنساها. إنه مشبع بالعاطفة، وأكثر رقة ولطافة، وأكثر... لم تنزح الغشاوة عن أحاسيسها إلا عندما جالت أصابعها إلى أعلى زر من أزرار بيجامته المجعّدة. ما الذي تفعله؟ هل مسّها ضرب من الجنون؟ عليها ألا تنسى أن نك هجرها حين واجهتها أسوأ أزمة في حياتها. لم تستطع الاعتماد عليه مطلقاً. تركت أديل الزر في مكانه وتراجعت بسرعة. عندما اقترب منها مجدداً هزت رأسها وقالت: «هذا لا يغيّر شيئاً».

في الواقع، لقد غيّر شيئاً بالفعل. فقد أوضح لها المسار الذي عليها أن تتخذه؛ إذا أرادت أن تبقي قلبها في مأمن من هذا الرجل، عليها أن تتخذ

تدابير صارمة. هذه هي الطريقة الوحيدة للنجاة.

- أقترح أن نتعامل مع هذا الموضوع كراشدين، بغض النظر عن مدى سخافة إخفائك الحقيقة عن أمك.

ارتعشت ابتسامة نك، وأجاب: «حاولت أن أجنبها توتراً إضافياً في الوقت الذي تعاني فيه بما يكفي. سرطان الثدي خطير جداً. تعرفين هذا، لذا لا أسمي ما فعلته تصرفاً صبيانياً».

تضايقت أديل بشدة في سرها، إلا أنها لم تُظهر أي حركة، حتى رفّة عين.

- أعرف أن السرطان خطير، فأنا لست حمقاء. ما أقوله هو أنك تعاملت مع الأمر بطريقة خاطئة، من دون أن تأخذ بعين الاعتبار العواقب على المدى الطويل. عليك أن تخبرها الحقيقة عنا.

- ما هي الحقيقة، أديل؟ تارة تدفعينني بعيداً وتارة أخرى... ماذا حصل للتو، على سبيل المثال؟

تراجعت أديل حتى اصطدمت مؤخرتها بالمنضدة، وقالت: «ما حصل هو أنك بالغت في حماسك، كعادتك».

أظهرت النظرة المحترسة في عيني نك أنه لم يصدّق ما قالته كلياً، حسناً! هي أيضاً لا تصدقه، إلا أن ذلك لا يعني أنها ستتراجع وتعترف بالأمر.

- تجعلينني أبدو كأنني كلب لابرادور.

في الواقع، إنه فعلاً ككلب اللابرادور؛ مخلص ومحب ومفعم بطاقة لا حدود لها، أضاف نك: «تبدين متحمسة أنت أيضاً».

إنه محق، وهذا أمر مثير للشفقة. أمضت قرابة السنة وهي تبني دفاعاتها تجاهه بحذر، وها هو يحولها إلى هلام في غضون أربع وعشرين ساعة فقط. قررت أن تفعل شيئاً ما لتنقذ نفسها.

- أتريد جواباً مني عن مصير علاقتنا؟

صوّح نك يديه في الهواء عالياً، وقال: «أتمنى أن تتاح لنا الفرصة لنحل هذه المسألة ونحن في طريقنا إلى إنفرغارنغ».

- ليس عليك الانتظار حتى نهاية الأسبوع؛ أستطيع أن أخبرك الآن.

حدّق بها بعينين متسعتين.

– سأذهب إلى الحفلة معك نك، لكن ثمة بعض الشروط.

كرّر نك قائلاً: «الشروط؟»

– نعم. حان الوقت لتتوقف عن تشتيت حياة الآخرين. حان الوقت كي تتحمّل مسؤولية أفعالك.

توتر فم نك ليصبح خطاً واحداً. أرادت أديل أن تكمل كلماتها قبل أن يومض بغمازتيه، أو يجيبها بأي شيء مربك.

– سأقدم لك هذه الخدمة إذا وافقت على الطلاق. وحين أصل إلى المنزل من سكوتلندة، سأستدعي محامياً.

لو أنها اقتربت منه وصفعته على وجهه ما كان نك ليندهش أكثر. اضطربت معدتها فيما سمعت صدى كلماتها في أذنيها. لقد قالتها بصوت عالٍ، ولم تعد تستطيع التراجع عنها الآن.

– حان الوقت لأكمل حياتي بهدوء. لدي حياتي الخاصة لأعيشها، ولا أستطيع أن أمضيها وأنا أشعر دوماً بالقلق بسبب تصرفاتك.

نظر نك إلى عينيها مباشرة ما جعلها ترمشهما بحركة لا إرادية.

– حسناً! على الأقل... أصبحت أعرف مكاني الآن في حياتك.

* * *

أبت حافة المغلف اللاصقة أن تلتصق. حتى حين انتهى نك من تمليسها ظلت متجعدة ومفتوحة من أحد طرفيها. وضع المغلف قرب آلة إعداد القهوة حيث تتوجه أديل مباشرة بعد نهار عمل طويل.

كانت حقيبته تنتظره في الممر. حملها نك، وقذفها إلى الخارج، ثم أقفل الباب بلطف خلفه. حدّق إلى الطلاء الأسود اللماع للباب الأمامي لعشر دقائق.

بدت المفاتيح دافئة حين سحبها من جيبه الخلفي. إلا أن صندوق البريد بدا بارداً كالجليد مقارنة بها، إذ لا يزال بارداً من جراء صقيع الليل. دفع نك بلسان الصندوق الصلب، وأسقط مجموعة المفاتيح فيه. حين سمع خشخشتها

وارتطامها بأرضه، استدار ورحل.

* * *

بدا الهواء ساكناً حين فتحت أديل الباب الأمامي وأسقطت حقيبة يدها الجلدية في موقعها المعتاد. حاولت أن تفكر بما ينقصها فيما خلعت معطفها وعلقته في خزانتها.

لا بدّ أن نك في مشغله الآن، منهمك في التحضير لإحدى مغامراته المشهورة. فكرت أديل أنها سوف تعد عشاءً لذيذاً لكليهما يناقشان خلاله وضعهما بهدوء وعقلانية. هما لا يتفقان معاً كزوجين، هذا كل ما في الأمر. لكن ما من سبب يجعل انفصالهما غير ودي. يمكنهما أن يبقيا صديقين.

الشيء الوحيد الذي رأته أديل حين وصلت إلى المطبخ هو ذلك المغلف. قطبت حاجبيها حين رأت أن نك كتب عليه بقلم مستدق الرأس ذي لون أخضر لامع.

تناولته وفتحته، مستخدمة سبابتها كسكين. سحبت ورقتين ممزقتين من دفتر ملاحظات ذي شريط معدني، وقرأت:

«أديل، سأبقى عند كريغ لليلتين. من الأفضل أن نبتعد عن بعضنا قليلاً. دعتنا أمي لتناول العشاء لديها ليلة الجمعة. إذا كان الأمر لا يناسبك يمكننا الذهاب نهار الأحد. سأتصل بك بعد يومين، فربما يتسنى لنا أن نهدىء من روعنا حتى ذلك الحين.

نك.»

طوت أديل الورقتين عند منتصفهما، وملّست الأطراف المجعدة حيث مُزقتا من الدفتر وأرجعتهما إلى المغلف. بعدئذ لم تعرف ماذا ستفعل به، فوضعته بقرب آلة صنع القهوة مجدداً وخرجت من المطبخ.

صعدت على الدرج، ومن دون وعي فتحت حنفيتي حوض الاستحمام. من هو كريغ بحق السماء؟ خلعت ثيابها على الأرض في كومة لا شكل لها، وحاولت أن تدع المياه الساخنة تزيل خيبتها. إن ترك ملاحظة لها هو تصرف جبان. كان عليها توقع ذلك. مالت أديل إلى الأمام وأدارت الحنفية الساخنة

حتى أصبحت المياه في حوض الاستحمام شبه مغلية.

لِمَ بدا نك مندهشاً جداً لطلبها الطلاق؟ لم يكونا يعيشان معاً، ولم يتكلما مع بعضهما لمدة... أشهر. ما الذي يتوقعه منها إذاً؟

أصبحت المياه في حوض الاستحمام تهدد بالطوفان، فمالت أديل إلى الأمام وشدت الحنفيتين، ثم غاصت في المياه الساخنة المغرية وهي تحاول أن ترخي عضلات كتفيها. تطلّب منها الأمر شهراً لتعتاد على العيش وحدها. لم تتصوّر أديل بيتهما الفكتوري الطراز المبني بين صف من البيوت المماثلة إلا عشاً لها ولنك، حيث سيعيشان سعيدين ويملآن البيت تدريجياً بالأطفال. وحين اختفى نك آخذاً معه احتمال حصول كل ذلك، لم تستطع أديل أن تصمد أكثر، إذ سرعان ما اضمحلّت أحلامها كما تفقع البالونات في الهواء. جلّ ما أرادته هو منزل صغير دافىء... مكان تحس فيه بالحب. أمضت هي ونك سنتين في تأثيثه وتجهيزه. أما الآن فمن الذي يهتم إذا ما كانت المقابض مناسبة للأبواب أو لخزانات المطبخ؟

يمتلك والدها قصراً في ضاحية المدينة، ملائم لرجل الأعمال الشهير الذي يملكه. لكنه للأسف لم يكن مصمماً ليلعب الأطفال في زواياه. «ممنوع اللمس» و«انظري إلى ما فعلته» بدا لها أن هاتين العبارتين ما زالتا تصدران صداهما في الغرف العالية السقوف. أنجبتها أمها وهي في الحادية والأربعين من عمرها، فكانت ولادتها صدمة بكل المقاييس، اعتقدت أديل أن أمها لم تتغلب عليها البتة. بالتأكيد، لم تدع أمها إنجاب طفلة يخفف من عزيمتها، فوظفت مربية أطفال وتابعت تجوالها حول العالم مع زوجها. لطالما بدت أمها بعيدة المنال بالنسبة إليها و... فاتنة كالملكة.

أسندت أديل رأسها على حافة حوض الاستحمام وحدّقت بالسقف. لطالما وضعت خططاً رائعة لهذا المنزل... لحياتها، وبحركة رشيقة واحدة قلب نك كل شيء رأساً على عقب. حين رحل حاولت أن تعطي المنزل هوية جديدة، فعلقت بعض اللوحات على الحيطان، ووضعت قدوراً مختلفة من الشتول في غرفة الجلوس. بالطبع، رتبت أغراضه ووضعتها في صندوق في

خزانة الملابس بعد أن رجعت من منزل مني، إلاّ أنها وجدت من الصعب إزالة بصمة نك الواضحة من المنزل. أخيراً، استطاعت أن تكف عن توقّع أن تجد سترته متدلية على ظهر الأريكة، أو أن تقفل الباب الخلفي الذي تركه مفتوحاً بعد نزوله السريع إلى مشغله ليجرب فكرته الرائعة المفاجئة الأخيرة.

عاد منذ يومين فقط وكان عليها أن تبدأ مجدداً. المشكلة هذه المرة ليست أغراضه المتناثرة في أنحاء المنزل. كلا، الأمر يكمن في انشغال أفكارها به، وهي ليست واثقة أنها تملك الطاقة لترتبها في تلك الفترة بالذات، من الأفضل أن تترك هذا العمل إلى نهار الاثنين.

* * *

بقي نك عند كلامه، فلم يتصل بها خلال اليومين التاليين، لكن هذا لم يمنع أديل من القفز والاندفاع نحو الهاتف كلما سمعته يرن. في النهاية، قررت أن تدع المجيب الآلي ينقذها من الرد اللاهث عدة مرّات، فالأمر بدأ يشعرها بالخجل. استمر صمودها حتى مساء الأربعاء، ففي تمام الساعة التاسعة إلا خمس عشرة دقيقة من ذلك المساء، سمعت أديل صوت نك على المجيب الآلي فتجمدت في مكانها.

- أديل! هذا أنا. أنا... علينا أن نحدد الوقت الذي سنغادر فيه صباح نهار الجمعة.

جاءت وقفة طويلة، ثم أضاف نك: «سأتصل بك لاحقاً، علني أستطيع مكالمتك».

مضت خمس ثوانٍ. عرفت أديل لأنها عدّتها واحدة تلو الأخرى، ثم أقفل نك الخط.

أزاحت أديل بحرص الكومبيوتر النقال عن حضنها ووضعته على الأريكة، ثم توجهت نحو الهاتف. أظهرت الشاشة رقماً لم تعرفه، فافترضت أنه رقم كريغ المضيف. نقرت زر الاتصال وانتظرت فيما راح الهاتف يرن.

- مرحباً!

بدا الصوت كأنه لفتاة يافعة شقراء وهي تقهقه تقريباً. فتجمدت أوصال

أديل.

- هل أستطيع أن أتحدث إلى نك، من فضلك؟

- بالطبع... إنه هنا.

صدرت أصوات مكتومة فيما غطت الفتاة سماعة الهاتف بيدها، لكن لم تجدِ هذه الحركة نفعاً كبيراً، لأن أديل ظلت تسمع كل ما تقوله.

صرخت: «نيكي!»

وأضافت: «المكالمة لك... أظن أنها أمك».

نيكي؟! ارتعدت أديل، وفضلت ألا تفكر بالتعليق الآخر. استطاعت أن تسمعه يضحك قبل أن يصل إلى الهاتف، فالتقطت أنفاسها فيما حمل السماعة.

- إذا دهستني سيارة لا تقلقي ماما، فأنا أرتدي ملابس داخلية نظيفة.

- مرحى لك!

- أديل؟

- يبدو لي أن كريغ أشقر الشعر وأقل خشونة مما تصورته.

- آه! لا... هذه كاي، صديقته الجديدة. كيف عرفت أنها شقراء؟

قلبت أديل عينيها، وأجابت: «افتراض موفق».

- أظن أنك تلقيت رسالتي.

- نعم.

- إذاً، هل سنذهب نهار الجمعة أم الأحد؟

قضمت أديل شفتها. قضاء نهار إضافي مع نك هو أمر صعب، لكن ربما ستكون هذه آخر مرة ترى فيها أقرباء زوجها.

- أستطيع أن أذهب نهار الجمعة.

سمعته يطلق زفيراً قبل أن يقول: «هذا رائع! لكن علينا أن ننطلق باكراً».

- في أي ساعة بالضبط؟

- لا أعرف. لم أحدد الوقت بعد.

أمر نموذجي! لم يفكر نك بهذا كله.

- حسناً! متى يبدأ العشاء؟

- انتظري لحظة... أطلعتني أمي على كل التفاصيل، لكن أريد أن أجدها.

سقطت سماعة الهاتف من يده على سطح صلب محدثة قرقعة، وسمعت أديل صوت خشخشة. لا بد أن ماغي كانت تفضل أن ترسل بطاقة صغيرة تتضمن كل التفاصيل كي لا ينسى إحداها.

قال نك وهو يبدو مقطوع الأنفاس تقريباً: «حسناً!»

وأضاف: «يبدأ العشاء في الساعة الثامنة».

- حسناً! علينا أن نصل إلى هناك حوالى الساعة السادسة. هذا سيعطينا القليل من الوقت لنريح أنفسنا ونتعش. كم سيتطلب منا الوقت لنصل؟

- تقول ديبي إن الطريق تستغرق تسع ساعات، لذا أقترح أن نغادر الساعة الثامنة.

- دعنا نغادر في الساعة السابعة إذ ربما نصادف زحمة سير في مكان ما.

تنهد نك، إلا أنه لم يعترض. سألته: «متى ستمر لتقلني، إذاً؟»

- السيارة لديك، أديل. أنا لم أحضر واحدة في حقيبتي كما تعلمين.

أغمضت أديل عينيها وانهارت على الأريكة، ثم علقت: «إذاً، لن أنحبس معك في السيارة لمدة إحدى عشرة ساعة فحسب، بل سأتولى أنا القيادة أيضاً».

فتحت عينيها ونظرت إلى سقف الغرفة نظرة طويلة حادة، ثم أضافت: «من الأفضل أن تعطيني عنوان كريغ. أريدك أن تكون واقفاً على عتبة الباب في الساعة السابعة تماماً، وإلا فإنني سأذهب من دونك».

والآن، أليست تبدو مثل أمه؟

- كما تريدين.

عرفت أديل أن نك يبتسم الآن ابتسامة متكلفة مغرورة على الهاتف، إلا أن شفتيها التوتا أيضاً بابتسامة.

مستحيل! هذا الرجل مستحيل!

* * *

نظرت أديل إلى الساعة على لوحة أجهزة القياس في السيارة. إنها السابعة

والسبع دقائق. حسناً! ستنتظر حتى السابعة وعشر دقائق، ثم ستتخلى عن إنجاز المهمة. هزّت رأسها يميناً ويساراً؛ تتخلى عن إنجاز المهمة! ما نوع تلك العبارة؟ إنها تبدو مثل منى أكثر فأكثر مع كل يوم يمضي. قد يعتقد أي شخص يسمعها أنها تتحدث عن عملية عسكرية.

نقرت زر الراديو بإصبعها المخبأ داخل القفاز. ربما إذا تعاملت مع الوضع على أنه مهمة فإنها ستنجو. إذا لم تخرج منه منتصرة، فلعلها تخرج سليمة القلب محفوظة الكرامة على الأقل. لن تسمح لنك أن يخرق دفاعاتها هذه المرة.

المشكلة الوحيدة هي أنها لا تعرف شيئاً عن الحرب. باستثناء بعض العبارات التي حفظتها من أفلام الحرب العالمية الثانية، وأخرى كانت تقولها لها جدتها الصارمة؛ اعرفي عدوّك!

حسناً! هذا أمر سهل للغاية، فقد غربلت شخصية نك عبر السنوات الماضية، لكن هذا لم ينفع. فكلما فكرت فيه، ازداد تشتت أفكارها. أما اليوم فلن تسمح لهذا الجندي بالتشتت مطلقاً. فكرت بعبارة أخرى أكثر نفعاً لها: حافظي دائماً على عنصر المفاجأة!

ابتسمت أديل وحركت المقود، ثم اتسعت الابتسامة على شفتيها. سيجن نك حين يرى السيارة. كتمت قهقهة بيدها، فدغدغها زغب القفاز. حان الوقت لتعامل نك بالسوء نفسه كما عاملها. تحرك عقرب الثواني للساعة نحو الثانية عشرة. إنها السابعة والتسع دقائق... والأربعون ثانية... والخمس والأربعون ثانية... أدارت أديل المفتاح لتشغل السيارة. كما توقعت، ظهر نك فجأة من الباب الأمامي للشقة ومعه حقيبة سفر قماشية وحقيبة ظهر. ناوله رجل قصير قوي ممتلىء الجسم أحمر الشعر ما بدا مثل حقيبة رياضية، فربت نك على ظهره وابتسم له. غابت الابتسامة عن وجه أديل حين رأت شقراء نحيلة تركض من الداخل، ثم تلف يديها حول عنق نك وتعانقه. دمدمت بانزعاج، ثم توقفت فجأة متفاجئة من نفسها.

بعد بضع لحظات، أصبح زوجها... الذي سيصبح زوجها السابق عند باب الحديقة، وراح ينظر إلى جهتي الطريق. أخفضت زجاج نافذتها ولوحت

بيدها، فلوح نك لها بدوره، ثم نظر إليها بعينين متسعتين. كشرت أديل فيما توجه نحوها، ولم يبد عليه أنه سعيد جداً.

- أديل! ماذا فعلت بالسيارة؟

- صه! إنها الساعة السابعة صباحاً.

- أعرف كم الوقت اللعين الآن، لكن أريد أن أعرف ماذا فعلتِ بسيارتي!

- سيارتنا... ولقد بعتها.

- لقد... ماذا؟

رفع نك نظره إلى السماء، وضغط شفتيه معاً وهو يهز رأسه يميناً ويساراً. أجفلت أديل عندما فتح صندوق السيارة ورمى حقائبه داخله. أصدرت إحدى الحقائب قرقعة غريبة، إلا أنها لم تتوقف حتى للتفكير بالأمر. ثمة مسائل أكثر إلحاحاً تشغل بالها. جلس على المقعد المجاور للسائق، وأقفل الباب بقوة، ثم استدار ليواجهها: «حسناً!»

- لم نعد نحتاج إلى ذلك الصندوق القديم، فهو ليس عملياً للمدينة.

بدا نك كأنه يردد عبارة "ذلك الصندوق القديم" في سره، فابتلعت أديل ريقها. ربما تخطت الحدود قليلاً، لكن بيع الجيب كان الوسيلة الوحيدة للثأر بين يديها. أرادت أن تمزق قمصانه إلى خرقٍ بواسطة شفرة آلة الحلاقة، إلاّ أن قلبها لم يطاوعها. فقد كانت تلك القمصان مشبعة برائحته.

- أردت شيئاً أصغر وأكثر فعالية كهذه السيارة الصغيرة.

نقر نك زراً على لوحة أجهزة القياس لكن شيئاً لم يحدث، فهمهم: «صندوق صدىء!»

ثم أضاف: «إذا كان هذا كل ما حصلت عليه من مال من جراء بيع الجيب، فقد تم خداعك كلياً».

نظرت أديل إلى نك نظرة جانبية، وأجابت: «أنا لست غبية. لم أنفق كل المال على هذه السيارة. أنا قادرة تماماً على شراء سيارة من دون استشارتك. تعرف هذا».

زمجر نك: «أديل! القدرة هي الصفة المميزة لك. كيف تراني أفكر أنك قد

تحتاجين إلي في أي شيء؟»

- الآن، أنت تبدو سخيفاً.

استدار نك ليضع حزام الأمان. تبعته أديل بالحركة ذاتها، وقالت: «أعتقد أنك تفضل أن أكون كالفتاة الشقراء هناك، ألقي بنفسي عليك وأتذلّل عند قدميك. أليس كذلك؟ هل تتجول هذه المرأة دائماً مرتدية قميصاً تكاد لا تغطي جسمها؟ لا بد أنها مقاومة جداً للبرد».

بقيت شفتا نك متلاصقتين معاً، فيما ابتسم وأجاب: «إنها من السويد، وهي معتادة على الطقس البارد».

حرّكت أديل مبدل السرعة، وتفحصت المرآة التي تظهر الجهة الخلفية مقطبة جبينها، ثم أرخت فرامل اليد.

أضاف نك: «إنها تنسى ارتداء القميص في بعض الأحيان حتى».

ثم ضحك وأردف: «أنا أمزح، بالطبع. حسناً! أمامنا رحلة طويلة، وفكرت أن نتوقف في ميدلاندز وقت الغداء. حتى ذلك الوقت، دعينا نتبادل حديثاً جميلا ومهذباً».

- تكلم أنت. أنا أقود السيارة.

- حسناً! الآن... عمَّ يجب أن نتكلم؟ آه... تذكرت! بالعودة إلى حديثنا السابق، كان ثمة شيء واحد على الأقل تريدينني من أجله هو مرافقتك إلى المناسبات الاجتماعية، إن كنت أتذكر جيداً.

انحنت أديل فوق المقود ولم تتفوه بكلمة. إذا استمر على هذه الوتيرة، سيكون نك محظوظاً إذا بقي حياً حتى وقت الغداء.

٤ - المرأة الخارقة

لاحظت بطرف عينها أن نك يتحسّس الحقيبة التي وضعها عند قدميه، فتنفست الصعداء. بعدئذٍ رأته يحمل في يده شيئاً ما... على الأرجح أنها إحدى الألعاب الإلكترونية. حسناً! ربما يمكنها أن تتمتع ببضع دقائق من السلام إذا ما انشغل بها لبعض الوقت.

ما هي إلا لحظة حتى فوجئت به وهو يضع تلك الآلة أمامه على الرف المحاذي للزجاج الأمامي للسيارة مثبتاً إياها بذراع خاصة لذلك.

- بحق السماء! ماذا تفعل الآن؟

ابتسم نك ابتسامة عريضة، وأجاب: «انتظري وسترين. ستحبين الأمر».

فجأة باغتتهما شاحنة، ولم يبق إلا بضعة ميليمترات تفصل بينها وبين سيارتهما، فركزت أديل نظرها على الطريق. حين سنحت لها الفرصة لتنظر مجدداً، كان نك منكباً على تلك الآلة وهو يضغط على أزرارها في تتابع سريع، فأصدرت صوتاً عالياً.

بعدئذٍ قال بفخر: «إنها جهاز لمعرفة الاتجاهات عبر القمر الصناعي».

قلّبت أديل عينيها، وركزت جيداً على أن تبقى بعيدة عن السيارة التي تتقدمها.

- كان علي أن أدرك أنك ستستعين في نهاية المطاف بإحدى الآلات المبتكرة لتفكر عنك، ولن تكلف نفسك البحث في الأطلس لمعرفة الطريق الصحيح.

- أديل! هل تريدينني أن أغوص في البحث عن الطريق في أطلس سماكته عشر أقدام؟ اعترفي حبيبتي أنك تخشين أن تفقدي السيطرة على الأمور.

- هذا ليس صحيحاً. الأمر هو أنني أحب أن أفعل شيئاً خلال الرحلات

الطويلة.

في الواقع إنها تفتش عن شيء يشتت تفكيرها، شيء ينزع فكرها عن الرجل الجالس قريباً جداً منها، ما جعل أطراف أعصابها تهتاج حذراً. حملقت أديل بالبدعة التي تجثم على الزجاج الأمامي لسيارتها.

- ما الذي يحدث إذا أدى بنا هذا الشيء إلى الضياع؟

مد رجليه ليرتاح، ثم أجاب: «مستحيل! هنا يكمن سحرها، فالمعلومات دائماً في متناول اليد. وهي تشير تحديداً إلى مكانك، ليلاً نهاراً».

توقفت أديل عن الحملقة. لربما يجب أن تعطي المسألة فرصة للمحاولة؟

- ألا تخطئ هذه الآلة مطلقاً؟

هزّ نك كتفيه، وقال: «هذه آلة ولديها أخطاؤها، لكنها عموماً دقيقة جداً، إلى حد المثالية تقريباً».

تنهدت أديل؛ مثالية! لكم باتت تكره هذه الكلمة. إنها تعرف كل شيء عن الضغوط التي يتعرض لها المرء الذي يتقن ما يقوم به إلى حد الكمال، والذي يتوقع الآخرون منه أن يبدو دوماً مثالياً. لا! لا يتوقعون فحسب... بل هم واثقون من كونه مثالياً.

فاجأها صوت كقعقعة الحديد كسر الصمت المخيم: «بعد تسع مئة قدم، اتجه إلى المخرج التالي».

نظرت أديل إلى الشاشة بعينين نصف مغمضتين، إذ إن نور الشمس بدا ساطعاً على الآلة ما حال دون رؤيتها السليمة.

- هذا يعني أن تنحرفي إلى الممر الآخر أديل. سيفوتنا المخرج إذا لم تفعلي.

الكلام أسهل من الفعل. نصف عدد السيارات المتنقلة على الطريق يحاول أن ينحرف باتجاه ذلك المخرج، لذا لم تجد أديل مكاناً تمر عبره. حاولت أن تجد منفذاً من دون أن تسبب اصطداماً، إلا أن الازدحام بدا شديداً حولها.

- انحرفي إلى المخرج التالي! انحرفي إلى المخرج التالي!

في الوقت الذي راحت أديل تتفحص المرايا مجدداً وتحاول أن تخفف من سرعتها، كان الأوان قد فات. فقد تجاوز ذلك الصندوق الصدىء الطريق

العام المزدحم.

طرح نك يديه في الهواء، وقال: «رائع!»

حملقت أديل فيه، وقالت: «لكان الأمر أسهل لو سمحت لي أن أعتمد على عيني وأذني، وأقرأ الإشارات بنفسي! لست معتادة على استعمال مثل هذه الحماقات...».

قاطعتها الآلة بصوت صاخب ملح، وقد ومضت على شاشتها علامة استفهام كبيرة. قال الصوت بطريقة هادئة ومزعجة على السواء: «استدر نصف دائرة بأسرع ما يمكنك».

صاحت أديل في وجه الآلة: «اصمتي، أيتها المرأة الدكتاتورية».

ثم أضافت: «نحن على الطريق العام. من المفترض بك أن تعرفي ذلك!»

أرجع نك رأسه إلى الخلف بقوة وراح يضحك. بالطبع، هو يجد الموقف مضحكاً!

بدت محطة البنزين منظراً مرحباً به، بالرغم من أنها ليست من أروع المواقع. قفزت أديل من السيارة وهرعت إلى المرحاض النسائي. حين وصلت إلى هناك، وضعت يديها على الرف أمام مرآة واسعة وانحنت إلى الأمام، تاركةً يديها تحملان ثقلها. أطلقت زفرة طويلة، ونظرت إلى انعكاس صورتها. لا يزال شعرها مصففاً في تسريحة ذيل الفرس، وبدت بشرتها نظيفة ومرتبة كالمعتاد، لكن فيما تمعنت جيداً في المرآة، استطاعت أن تقول إنها منهكة من التعب. عرفت هذا من الارهاق الذي ظهر في عينيها والارتخاء البسيط لزاويتي فمها. استقامت في وقفتها، ثم شدت كتفيها إلى الخلف ورفعت ذقنها.

هذا الاجراء بدا روتيناً مألوفاً بالنسبة لها. إنه روتين تعلمته في المدرسة، وما زالت تستعين به حين تكون بحاجة إلى إظهار شخصية قوية أمام الآخرين. لم تكن أديل تتمتع بالسحر والفتنة كبعض زميلاتها في الصف، لكن ما افتقدت إليه من ثقة عوضته من خلال قوة الملاحظة والعمل الجدي.

أمضت الساعات وهي تراقب الفتيات المرغوبات؛ من وقفتهن إلى طريقة كلامهن، حتى ضحكاتهن وحركات أيديهن... راحت تستيقظ باكراً وتتمرن

أمام مرآة المرحاض، فيما الجميع ما زالوا يغطون في نومهم. لم يمضِ وقت طويل حتى أصبح لديها أصدقاء، وبدأ المعلمون والمعلمات يلاحظون وجودها أكثر، وفي نهاية أيامها في لاملي كولدج صارت الفتاة الأكثر شهرة في المدرسة.

هذا لا ينفي أن الفتاة الهمجية لا تزال مندسة تحت مظهرها الواثق هذا. بدا الأمر أشبه بلبس عباءة بسرعة، كقشرة خارجية لا يكلف أحد نفسه العناء ليرى ما يوجد خلفها.

تستطيع أديل أن تخلق التغيير بطرفة عين واحدة، لكنها اضطرت اليوم إلى بذل مجهود أكبر، فهي بحاجة إلى الطمأنينة التي توفرها لها المرآة. على مر السنين، تسلطت الأضواء على شخصيتها الثانية. أما هذه الأيام، فتظهر أديل الحقيقية حين تكون آمنة في حرم بيتها. ربما يزول خجل تلك الفتاة في يوم ما بفعل شخصيتها البديلة تماماً. أخيراً، وجدت اسماً للوجهة الأخرى من شخصيتها: «أديل الخارقة». فبدلاً من القمصان القطنية القصيرة وسراويل الليكرا، أصبحت ملابسها أكثر ملاءمة للطريقة التي تظهر نفسها عليها، وأصبحت ابتسامتها مشعة بما يكفي من دون أن تبدو مزيفة. استغرقها الأمر عدة سنوات لتصل إلى المثالية.

أضافت طبقة أخرى من الماسكارا على رموشها، ومررت أحمر الشفاه على شفتيها. حسناً! ها قد أصبحت جاهزة لمواجهة العالم... من الخارج على الأقل. رفعت حقيبة يدها وعلقتها على كتفها، ثم خرجت من الباب.

بدت أديل الخارقة فكرة جيدة في البداية، وأحبها الجميع. لفترة معينة، وجدت متعة في لفت الانتباه، أما اليوم فقد فقدَ ذلك الأمر وهجه الدافئ. يحبّونها هي لا أنا! حتى نك وقع في حب أديل الخارقة! حين تزوجا، شعرت أديل بالفخر لأن نك يعتقد أنها تستطيع فعل كل شيء والاهتمام بكل شيء، لكن بعد سنتين من زواجهما شعرت بالتعب. حاولت أن تتخلى عن موقعها، إلا أن نك لم يدعها تفعل. بدا متشبثاً بأديل الخارقة، ولم يسمح لها بالانسحاب. سيطرت عليها الرغبة بأن تسترخي وتخفض كتفيها، إلا أنها قومت عمودها الفقري.

كان المطعم أمامها مباشرة واستطاعت أن ترى نك جالساً بانتظارها.

سمح نك لأديل أن تمر أمامه باندفاع، وتوجه نحو المقهى. استقبله الكثير من العلب البلاستيكية البراقة ورائحة الطعام المشبع بالدهون. تفادى انتقاء السجق والأصناف الأخرى التي بدت وكأنها أمضت أسبوعاً على الأقل تحت الحرارة، فاختار بدلاً من ذلك كوبين من القهوة. بعدئذٍ استقر في مقعد أبيض، وانتظر عودة أديل.

بدا المطعم مهجوراً تقريباً. ظهرت أديل وجلست بقامتها الجامدة والرسمية على المقعد المواجه له. إنه يشعر بالكثير من الانزعاج حين تتصرف على هذا النحو. فكر أنها ليست بحاجة لأن تظهر وجهاً أقوى ممّا هي عليه.

- بالله عليك أديل! هذه ليست نهاية العالم. لم يلزمنا الكثير من الوقت لنجد المخرج التالي ونرجع إلى الطريق العام.

هزّت أديل رأسها موافقة، واحتست قهوتها. فكرت أن قوة غضبها استنزفت قواها كالمعتاد.

ركز نك نظرات عينيه في عينيها، وقال: «هل خطر في بالك مرّة أن المقاييس التي تتبعينها عالية قليلاً، وأنك تضعين لنفسك أهدافاً صعبة وتقسين على نفسك إذا لم تحققيها؟ ليس عليك أن تثبتي نفسك على الدوام، وأنت تعرفين ذلك. الكل يتبع الطريق الخاطىء من حين إلى آخر».

- أنا لا أحاول إثبات أي شيء أو التأثير في أي كان. أنا فقط أحب القيام بالأمور بالطريقة الصحيحة، لذا أطلب من نفسي ما أحب أن أراه في الآخرين. سأبدو مزيفة إن لم أفعل ذلك.

هزّ نك رأسه موافقاً، فهذا هو الكلام الصائب.

- أعتقد أنه كلما اقترب الآخرون من المعايير التي تضعينها، ترتفع علامة نجاحهم في التقرب منك.

- لا تكن سخيفاً! لا داعي لأن يخوض الناس امتحاناً كي يصيروا أصدقاء لي.

آه... ! لا؟ إذاً لماذا يشعر كأن كل كلمة يقولها وكل حركة يقوم بها تخضع

للدرس والتدقيق؟

– أظن أنك تتوقعين من الناس أن يتصرفوا بالطريقة التي تريدينها أنت.

هزّت أديل رأسها، فيما ابتلعت رشفة من القهوة. أضاف نك: «لمجرد أنني لا أخطط لكل شيء مسبقاً قبل سنة، هذا لا يعني أنني بائس».

أردف بعد قليل: «أنا مختلف عنك أديل، لكن هذا لا يعني أنني لا أنجز ما أبدأ به أو لا أهتم للأمور، بل إنني أفعل. لم أنس قط موعداً مقرراً ولم أخرق عقداً. قد يبدو أنني لا أخطط للأمور، إلا أنني لست كذلك. المسألة هي أن لدينا طرقاً مختلفة لتحقيق أهدافنا».

– أعرف هذا.

أراد نك أن يضع يده على معدته ويضحك بصوت مرتفع، إلا أن هذا لم يبدُ جيداً الآن. إنه يستحق ميدالية ذهبية لمقاومته إطلاق مزحة طارئة ومحاولة انتشال ابتسامة منها بالقوة.

– أتريدين كعكة بالشوكولا؟ رأيت بعضاً منها على الطاولة.

هزّت أديل رأسها إيجاباً مجدداً، ولاحت ابتسامة على وجهها. قفز نك من مكانه ودفع ثمن الكعكة بسرعة. إذا لم تتناول أديل القليل من السكر لإعطاء دفعة نشاط لدمها، فلن يتحسن مزاجها مطلقاً.

أمال رأسه إلى أحد الجانبين ونظر إليها جيداً ثم قال: «تبدين منهكة».

– شكراً جزيلاً.

اقترب منها وأخذ يدها بيده. بدت أديل متعبة وقد امتص الشجار قواها، إلاّ أنها لا تزال جميلة حقاً. ليس بطريقة لافتة، لكن القوة التي ظهرت في ملامحها الدقيقة أشارت إلى اندفاعها وتماسكها، كما لاح خلف عينيها بريق متقد حذّره أن يستعد لكل ما قد يحدث.

– سأقود أنا الآن. هل لديك تأمين؟

ظهر الاسترخاء عليها لجزء من الثانية فقط. أجابت: «هذه أنا، نك! بالطبع لدي تأمين تجاه كل شيء: الفيضان، الحريق، أحداث القضاء والقدر، والحريق... هيا! ألن تطلق نكتة بالمناسبة؟»

شدّ نك على يدها قليلاً. لطالما أحبّ أصابعها... إنها طويلة ونحيلة. لقد اشتاق إليها حقاً!

– عودي أنتِ إلى السيارة واستريحي. عليّ أن أحضر بعض الأغراض من المتجر.

راقبها وهي تبتعد نحو السيارة. لطالما وقفت بطريقة مستقيمة جداً وفخورة جداً. كيف يمكنه أن يضع حداً لهذه العواتق الداعية إلى الفخر؟ ليته يعرف. إلاّ أنه واثق من أمر واحد: هو يريد أن يسترجع زوجته، وسيفعل كل ما بوسعه هذا الأسبوع ليجعلها تدرك أنها تريده هي أيضاً. بالطبع، في جعبته بعض الحيل التي ستساعده ليدفعها في الاتجاه الصحيح.

قد يكون التظاهر بالنوم متعباً في الواقع، هذا ما اعتقدته أديل. فتحت جفناً من جفنيها ونظرت إلى نك نظرة جانبية. بدا وهو يهمهم في سره أن لا همّ لديه البتة. قبل بضعة أيام فقط، قالت لهذا الرجل إنها تريده خارج حياتها إلى الأبد. نعم، بدا نك غاضباً قليلاً في تلك اللحظة، أما الآن فلا يبدو أنه منزعج مطلقاً. أرخت جفنها فأطبق مغمضاً. إنها ليست شخصاً حقوداً، إلاّ أن جزءاً منها شعر بالغضب حقاً لأن نك لم يبدُ غاضباً أكثر. قرار الانفصال عن زوجها هو الأصعب في حياتها، أما نك فلا يبدو شديد الاضطراب بسبب هذا القرار.

لم يأخذها نك على محمل الجد، كما لم يأخذ زواجهما على محمل الجد من قبل. لو أنه فعل، لما بدا غير مبالٍ بشأن الأمر برمته. لو أنه اهتم حقاً لما رحل في ذلك الوقت. لطالما قال إنه يحبها، لكنه لم يحبها بقدرٍ كافٍ. فقد أحب مهنته أكثر منها. إلاّ أنه رجع الآن والبهجة واضحة على محياه، وقد عانقها بشوق في المطبخ. ألم يفعل؟ أتراه ندم على قرار تركه لها؟

حين وقفت أديل في الكنيسة مع نك وتبادلا العهود، ظنت أن علاقتهما ستدوم إلى الأبد. انجرفت مع الانسجام القوي بينهما، ولم تتوقف حتى لتسأل نفسها إذا كان ذلك كافياً ليحافظ على علاقة تدوم لخمسين عاماً. جعلها نك تعتقد أنهما نصفان متعاكسان لكيان واحد: حلو ومر... نور وظلام... إلا

أنه في النهاية اتضح أنهما مختلفان جداً، كالزيت والماء. حالما أشرقت الشمس وبزغ نور النهار مجدداً تبين أنه من غير الممكن أن يتواجدا معاً من دون أن يلغي أحدهما الآخر، ولم يستطع أي منهما القيام بذلك. مزق السكون صوت باتت تكرهه: «بعد ألف قدم، اتجه إلى المخرج التالي».

فتحت أديل عينيها وسوّت جلستها. أهما يغادران الطريق العام؟ هل غرقت في النوم وفوّتت معظم الرحلة؟ خفق في صدرها وهج متقد من الارتياح.

كان الطقس ماطراً، لكن بدلاً من التلال الكثيرة الصخور وأشجار الصنوبر التي توقعت أن تراها، وجدت حقولاً قليلة الانحدار والكثير من المزارع. بدت الأرض الشاسعة مسطحة وشبيهة جداً بطبيعة إنكلترا.

- لماذا ننحرف عن الطريق العام نك؟ أين نحن؟

قال نك مفسراً: «في مكان ما خارج ستافورد. إنها محطة للاستراحة».

بالرغم من شعورها بالجوع، شعرت بمعدتها تحتج على فكرة تناول الطعام الموضوع في علب بلاستيكية. قالت له: «لست واثقة أنني حقاً... لماذا نترك الطريق العام؟»

أنقذه من الإجابة شريكه في المؤامرة: «خذ المخرج التالي واستمر في التوجه نحو اليسار».

فعل نك ما قيل له، وما لبثا أن وصلا إلى ممرات الريف. كانت أديل متعبة جداً لتسأل. فكرت أن نك سيقوم بفعل ما يريد، سواء أعجبها الأمر أم لم يعجبها، لذا من الأفضل ألا تتفوه بكلمة. بعد مرور حوالى الخمسين دقيقة، نزلا إلى طريق خاصة وأوقف نك السيارة أمام كوخ فخم: نوافذ ذات إطارات رصاصية، وسقف من القرميد، وسياج جميل يحيط بحديقة فيها عدد من الحيوانات. بدا المنظر رائعاً حتى في هذا الوقت من السنة. ضغط نك على البوق فأطلق صوتاً عالياً فأجفلت أديل.

بعد بضع لحظات، هرع رجل في الثلاثينيات من عمره من الكوخ، وابتسم ابتسامة عريضة لنك فيما خرج هذا الأخير من السيارة: «نك! إنني سعيد لأنك

تمكنت من الوصول أخيراً. هل أحضرت محرك الغسّالة الذي وعدتني به؟»

- بالطبع! هو في السيارة، لكن قبل أن أعطيك إياه عليك أن تفي بوعدك بما اتفقنا مقايضته؛ غداء لذيذ لمسافرين متعبين.

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة، ورد قائلاً: «أعدت فويب أحد أنواع الحساء التي تشتهر في تحضيرها. إذا لم تكن حذراً، ستجعلك تحتسي وعاءً كاملاً قبل أن تسمح لك بإكمال طريقك!»

فتحت أديل باب السيارة، ومدت رجليها المتصلبتين بسبب طول الرحلة.

أضاف الرجل: «بالحديث عن النساء، لا بد أن هذه زوجتك».

وقبل أن يتسنى لأديل أن تسأله عن حاله، تجاهل الرجل اليد التي قدّمتها له للمصافحة وسحبها نحوه في عناق شديد. رمقت حينها نك بنظرة توسل من فوق كتفي الرجل، إلا أن كل ما فعله هو الابتسام لها وهو يقول: «أديل، هذا آندي... عملنا على بعض المشاريع معاً».

حسناً! هذا يفسر الافتتان بالأجزاء الغريبة من الخردة وأي شيء متعلق بالميكانيك. أخيراً، أفلتها الرجل من قبضته فابتسمت له ابتسامة مرتعشة.

- يسرني لقاؤك، أديل. سمعت الكثير عنك. لا يكف نك عن التحدث عن زوجته الجميلة الناجحة. أظن أنه يتمنى في سره أن يتوقف عن القفز من مكان إلى آخر لإنتاج مجموعة من الأفلام، ليستقر في نمط الحياة الراقي الذي عودته عليه.

- آه!

مؤثر جداً! أهذا أفضل ما أمكنك قوله لتحافظي على الصورة التي رسمها لك نك؟

لم يبدُ على آندي أنه لاحظ ارتباكها. بدا منشغلاً جداً بالتحدث إلى نك فيما قادهما إلى داخل الكوخ. مشت أديل بتثاقل وراءهما. أخرجت نفساً طويلاً ومررت يداً على شعرها. بفضل تعريف نك عنها، كان على أديل الخارقة أن تبقى حاضرة طوال فترة تناولهم الغداء. في هذه اللحظة بالذات، بدت قواها الخارقة غائبة على نحو تام. راقبت الرجلين وهي تتبعهما إلى الداخل، إلى

حجرة مجهزة بمدفأة كبيرة. بدا أسلوب آندي في اللباس أشبه بأسلوب نك: سروال جينز بالٍ، وقميص عليها رموز أو شعارات حديثة وممتعة. كذلك، كانت تشع في عينيه تلك الومضة اللعوبة. لا بدّ أن هناك شيفرة خاصة لمصممي الأفلام أو ما شابه. سمعت صوت قدمين في الممر فاستدارت لترى امرأة تدخل الغرفة. وقف نك فوراً على قدميه، وأحست أديل أنه ينتشل الروح منها حين رحب بالمرأة القادمة ترحيباً كالذي أغدق عليها آندي به.

- فويب! من الرائع رؤيتك مجدداً. كيف الحال؟

ضحكت فويب فيما عانقها نك عناقاً أشد من عناق آندي لأديل، فأخذ يهزها من جانب إلى آخر حتى بدأت تفقد توازنها. فاجأ أديل إحساس كضرب الخنجر في معدتها، ولم يهدأ ذاك الاحساس حتى حين ضربته فويب على ذراعه وطلبت منه أن يفلتها.

بعد أن أفلتت فويب من ذراعي نك، استدارت لتواجه أديل، وهي لا تزال تبتسم ابتهاجاً.

- لا بدّ أن تكوني أديل المشهورة.

نهضت أديل عن الكنبة، وشعرت بذراعيها ورجليها فجأة صلبة وهشة في آن. مدت يدها للمصافحة، فرفعت فويب حاجبها قليلاً، لكنها صافحتها على أي حال. فشلت أديل في أن تصفف كلمات المجاملة في ذهنها. ماذا يمكنها أن تقول؟ يبدو أن هذين الشخصين يعرفان كل شيء عنها، مع أنها قبل خمس دقائق فقط لم تكن تعلم بوجودهما. لماذا؟ هل لأنها تتجاهل نك كلما حاول أن يكلمها عن التفاصيل الدقيقة لعمله؟ أهي حقاً منغمسة في شؤونها إلى هذا الحد؟ قالت: «مرحباً!»

ابتسمت لها فويب في المقابل ابتسامة خالصة. شعرت أديل أنها تنكمش على نفسها.

- تعال معي إلى حظيرة الماشية، نك. أريد نصيحتك حول شيء أبنيه، فأنا أقوم باختراع مجنون لآلة كرة مضرب مخصصة لدعاية أعمل على إنجازها، لكنها ترفض أن تبدو وحشية كما أريدها أن تكون.

أجاب نك وهو يخرج من الباب: «إذا أردتها أن تبدو وحشية، فأنا هو الرجل الذي يمكنك الاعتماد عليه».

هزّت فويب رأسها، ثم قالت: «سيكون الغداء جاهزاً بعد عشرين دقيقة تقريباً، لا تضطراني كي آتي وأجلبكما بنفسي».

بعدئذٍ استدارت نحو أديل وغمزتها، وأردفت: «صبيان مع ألعابهما، أليس كذلك؟ لمَ لا نذهب إلى المطبخ ونتحدّث فيما هما يتفحصان تلك الآلة؟

- بالطبع!

أرادت أديل أن تبدو مشرقة ورائعة وساحرة. أرادت أن تبدو حقاً أديل الخارقة، لكن قواها الخارقة بدت مدفونة فعلاً تحت كومة كاملة من الصفات التافهة الأخرى. يجب أن تحاول مرة أخرى، فقد بدت فويب لبقة حقاً. سوف تذهب برفقتها إلى المطبخ فتتحدث معها بلطف وكياسة، متجاهلة الاحساس بالاضطراب المتقلقل في معدتها.

فجأة، بدا لها أن الجلوس في سيارة صغيرة مع نك فكرة جذابة، أما جلوسها في ذلك المكان وهي تراقب فويب تعمل ببطء في المطبخ، فقد بدا أشبه بمشاهدة فيلم رعب. إلا أن هذا الفيلم بدا مختلفاً تماماً، فبدلاً من أن يبدو كل شيء أسوأ بكثير مما يمكن لحياتها أن تبدو عليه، بدت الصورة أفضل مما حلمت يوماً... بدا لها كأن فشلها قدم لها على طبق، وهي تختنق مع كل لقمة منه. هذان الزوجان يحظيان بكل شيء: المنزل والزواج السعيد. إنهما متمسكان بجذورهما. شعرت أديل بالحسد يتآكل قلبها. إنها تتمنى أن تحظى بجذور وحياة هانئة أكثر من أي شيء آخر في الحياة.

٥ - إنها فكرته!

- أتمنى أن يعجبك الحساء. إنه يحتوي على بروكولي وجبنة ستلتون.

- يبدو هذا رائعاً.

جلست أديل إلى منضدة المطبخ. تذكرت عزمها بأن تقوم بحديث مهذب، لكن بدا الأمر بالغ الصعوبة. كان عليها أن تخطط لكل كلمة مسبقاً وتتدرب عليها في ذهنها. تطلب الأمر منها تركيزاً جماً.

- منذ متى تعيشين هنا؟

تذوقت فويب الحساء، ثم قطبت جبينها وقالت وهي تزيد الملح: «منذ سنتين تقريباً».

ثم أضافت: «قررنا أن نتأنّى قليلاً. كان لكلينا جدول عمل شاق، وبالكاد كنا نرى بعضنا... إنني واثقة أنك لا تريدين معرفة تفاصيل الأمر».

أخفضت أديل رأسها وتلاعبت بأصابعها مفترضة أن مضيفتها لا تعرف شيئاً عن مشاكلها الزوجية. بالرغم من أنها غضبت لأن نك لم يخبر عائلته بالحقيقة، لم يكن من المريح أن تفضح مشاكلهما في العلن.

- أقدر كثيراً أنك ونك وجدتما وسيلة لتنجحا زواجكما من دون أن يتخلّى أحدكما عن عمله.

ضحكت فويب ضحكة خافتة، وأضافت: «أنا واثقة أنني وآندي كنا على طريق الطلاق لو لم ننتقل إلى هنا».

فتحت أديل فمها وأقفلته مجدداً.

حركت فويب الحساء مجدداً، وشعرت أديل بالامتنان لأنها لم تبدُ مهتمة للثغرات الطويلة في الحديث. بالنسبة لها، الانتقال إلى الريف ما كان لينقذ

زواجهما، فأديل ستظل أديل ونك سيبقى نك. ضربت فويب الملعقة الخشبية بعنف على القدر الصغير، وقالت: «انتهيت من تحضير الحساء. هل تستطيعين أن تنتبهي له فيما أنادي الرجلين وأحضر ماكس؟»

هزّت أديل رأسها إيجاباً. ألديهما كلب يدعى ماكس؟ ماكس هو الاسم الذي اختارته ونك لجروٍ كانا سيشتريانه حين توقفت مشاريعهما الشخصية.

دخل نك وآندي المطبخ بعد بضع دقائق وهما ما يزالان غارقين في حديث عن الميكانيك والمحركات، وما هي إلا لحظات حتى سمعت وقع قدمي فويب خارج باب المطبخ. فويب وزوجها شخصان لطيفان، وهي تستطيع التفاهم معهما إذا أرادت. كل ما تحتاج إليه هو أن تتصرف على سجيتها. ظهرت أسنان أديل في بداية ابتسامة، لكن ما إن دفعت فويب الباب حتى تجمدت كل ذرّة في دمها؛ ماكس ليس كلباً... إنه أسوأ من هذا بكثير... إنه طفل صغير!

حاولت أن تسيطر على تسارع نبضها. أصبح الأمر في غاية الخطورة، فالأطفال يحتلون أعلى مرتبة في لائحة مخاوفها. خوف تخطى خوفها من العناكب بأشواط. إنها لا تصاب بالهلع عندما يتم تحذيرها من وجودهم مسبقاً، مثلما يحدث حين تذهب إلى بيت مني، لكن حين تظهر أمامها فجأة مخلوقات صغيرة مليئة بالنمش، يخالجها شعور من الاضطراب في معدتها يجعلها ترغب في دفع الكرسي إلى الوراء والبدء بالركض.

لم تستطع أديل أن تنظر إلى الطفل مع أنه بدا ظريفاً جداً، ورائحته العطرة الخاصة بالأطفال تندفع نحوها وتعذبها. وضعت ملعقة من الحساء الدافىء في فمها علها تخفف من تأثير تلك الرائحة. خَفُتَ صوت الثرثرة حول الطاولة حتى باتت تسمعهم وكأنهم يتحدثون من تحت المياه. لو لم تجرِ الأمور بشكل خاطىء، لكانت تحمل الآن بين ذراعيها مولوداً صغيراً وردي اللون.

أخذت نفساً من أنفها، وحاولت أن تنفض عنها الصور الأليمة من دون أن تحرّك رأسها. صور تضمها هي ونك وهما يضحكان وسط مطبخ كبير ذي لون أصفر شاحب، حيث يتناولان الحساء ويتداوران جيئة وذهاباً حمل طفل

صغير على أكتافهما ليتوقف عن التجشؤ. صارت هذه الصور أكثر إزعاجاً... تذكرت الارتباك الذي اعتراها بعد أن رحل زوجها، حين وجدت الخط البنفسجي الثاني على فحص الحمل. هذا ناهيك عن الرعب الذي اجتاحها بعد أسبوعين عندما أصابها النزيف. وأخيراً حين سيطر البؤس عليها للأشهر التي تلت. طرفت أديل بعينيها وبقي جفناها مغمضين لثانية إضافية؛ لن أبكي! سأضبط مشاعري إلى أقصى حد، ثم سأشارك في الحديث، وأنهي حساتي، وأغادر كأن شيئاً لم يكن. الخطأ ليس خطأ فويب وآندي. لا يجدر بها أن تعاقبهما وتضعهما في موقف حرج أثناء تناول الغداء. حسناً! إنه ليس خطأ نك أيضاً، فقد قال الطبيب إن الأمر يُعزى إلى عدد من الأسباب. قال إنه ما من سبب يمنعهما أن يحاولا مرة أخرى في خلال شهرين. لكنه لم يدرك أن زوجها هجرها ومعه مقوّماته الحيوية، وربما لن يرجع مجدداً.

راقبت أديل مضيفتهما، فيما مرّر آندي ببطء سلّة الخبز الساخن إلى فويب، فابتسمت له ابتسامة صغيرة. مر الكثير من الرسائل بينهما خلال تلك اللحظة، وأحسّت أديل بانقباض في قلبها حين تذكرت الأوقات التي كان نك ينظر فيها إليها بهذه الطريقة. أما الآن فهو ينظر إليها من فوق حسائه فحسب. إنها مخطئة! هذه ليست قصة رعب بل إحدى قصص الجن. إلا أنها لا تؤمن بالجنيات والسحر، وما يحصل هو حياة حقيقية، والحياة الحقيقية باردة وقاسية ومليئة بالوحدة. لا مجال لأن يتوصلا هي ونك إلى نهاية سعيدة.

لم تفارق عينا نك أديل وهو يتناول الحساء. في البدء، بدا الأمر على ما يرام، إذ كان الحديث يتنقل بينهم، لكن بعد ذلك لاحظ أن الحديث يجري حولها، كأنها صخرة في وسط جدول ماء متدفق لا يؤثر فيها الحديث مطلقاً. كان عليه أن يتوقع أنها ستتفاعل بهذه الطريقة، فهذا اللقاء ليس جزءاً من خطتها المدروسة بإتقان، وأديل لا تحب أن تنحرف عن خططها ولو قليلاً. افتراضه أن لقاء أديل بهذين الزوجين سوف يزيل من رأسها تلك الغمامة التي تحجب عنها الرؤية بوضوح هو مجرد حماقة.

طرحت فويب على أديل سؤالاً، ولم تتظاهر أديل حتى بأنها مهتمة، بل

راحت تحدق في الفراغ وتجاهلتها. لاحظ نك من وجه فويب أنها انجرحت، فنظر في عينيها وهزّ كتفيه اعتذاراً. كيف تجرؤ أديل على فعل هذا؟ ربما كان عليه أن يحذرها قبل توقفهما في منزل صديقيه. ربما كان عليه أن يحذر آندي وفويب أن الأمور لا تجري على ما يرام بينهما. إلا أن هذا لا يعطي زوجته العزيزة عذراً لتتصرف كطفل مدلل. سوف يجبرها على المشاركة في هذا الحديث رغماً عنها.

- ما رأيك بالحساء، أديل؟

استدارت أديل لتنظر إليه ببطء، وقالت: «همم...؟»

- الحساء... هل أعجبك؟

- آه!

احتست بسرعة ملعقة أخرى. وأجابت: «إنه لذيذ».

نظر نك إلى فويب وابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال: «إن الحساء الأقرب إلى ذاك المحضر منزلياً هو الذي كنا نشتريه بأسعار باهظة في علب كرتون، ثم نضعه في القدر».

قالت فويب وهي تنظر بأمل إلى أديل: «لدي بعض الوصفات لأنواع من الحساء لذيذة حقاً وسهلة التحضير في آن، إذا كنتِ مهتمة».

ابتسمت أديل رداً على ذلك. أخيراً أظهرت نوعاً من التقدّم.

- شكراً! إلا أنني حقاً لا أملك الوقت الكافي.

عادت أديل لتلعب بحسائها، بالرغم من أنه بالكاد كان يصل إلى فمها. ربما من الأفضل لو أنه تركها في زاوية محايدة من الطاولة، فقد بدا تدخله فكرة سيئة. هذا ما يحاول فعله من خلال هذه الرحلة منذ البداية، وها هي النتيجة التي وصل إليها. متى سيتعلم الدرس؟

بدا المطبخ أكثر ظلمة ووحشة ممّا كان عليه حين بدأوا بالأكل، وتطلّب من نك بضع دقائق ليكتشف أنه لا يستطيع التأثير بمزاج أديل، لكن هناك الكثير ليفعلاه هو وآندي قبل هطول المطر. وقف آندي، وقال: «أتساعدني يا صديقي؟ تركنا نصف المحرّك خارج الحظيرة، وستصدأ أجزاؤه إذا تركت تحت

المطر».

ركض نك خارجاً لينضم إلى آندي، وراحا يلتقطان ما بقي من المعدن عن العشب أمام الحظيرة الذي يستعملها هذا الأخير مكاناً لعمله، ثم وضعاها في الداخل. لطالما افتتن نك بالطريقة التي تجتمع فيها الأجزاء الثانوية وجذوع الآلة والأشكال الصغيرة الغريبة لتكوّن شيئاً مفيداً، يؤدي كل جزء فيه دوره بإتقان. أخذ المطر يتناثر في قطرات كبيرة فوق شعر نك ليصل إلى أسفل وجهه فيما راح يجمع الكومة الأخيرة.

كان يشعر بالثقة حين بدآ رحلتهما هذا الصباح بأنه يستطيع إقناع أديل بما لديه، لكنه الآن لم يعد متأكداً تماماً. لم يعد زواجهما على المحك فحسب، بل إنه يتناثر قطعاً قطعاً، ولم يعد نك متأكداً أنهما يستطيعان إعادة الأمور إلى نصابها.

مسحت أديل منشفة مطبخ رطبة حول طاس الحساء، ثم وضعتها على كومة المناشف الأخرى. على الأقل، هي لم تضيع فرصة المساعدة بتنظيف الصحون، فالميزة الإضافية لذلك العمل هي أنه لا يتضمن الكثير من الكلام.

نظرت من فوق كتفها فرأت فويب تمسح وجه ابنها وتفك رباط كرسيّه العالي. ابتسم الطفل عندما رفعته أمه عالياً، ثم غرس يده الصغيرة الممتلئة في شعرها وشدّه، إلاّ أنها لم تبدُ منزعجة بل ابتسمت وقبلته على أنفه.

انزلق الصحن من يد أديل بسبب منشفة المطبخ الرطبة، وتحطم فوق الأرض المكسوة بالآجر.

أمن الضروري أن يحدث خطب ما وهي تنشف الصحون؟ يا إلهي!

- أنا آسفة، فويب. كان يجب علي أن أحضر منشفة جديدة حين أصبحت هذه رطبة.

هزّت فويب رأسها، وقالت: «لا تقلقي! هذه الأشياء تحدث دائماً. أصبحت أشتري خزفاً رخيص الثمن من السوق. سأذهب وأحضر المكنسة».

مدت فويب ذراعيها وقربت ماكس نحو أديل، ثم أردفت: «أيمكنك أن تحمليه قليلاً؟ سأعود بعد لحظة».

نظرت أديل إلى رجليه الصغيرتين تتأرجحان في الهواء وابتلعت ريقها،

وقبل أن تتخذ قراراً واعياً، وجدت نفسها تضع يديها تحت إبطي ماكس ثم تشده إلى صدرها. اختفت فويب بعد خروجها من باب خشبي، وتركت أديل وحيدة في المطبخ مع جسد صغير دافئ بين ذراعيها. تطاول ماكس بعنقه إلى أقصى حد ليلحق بأمه فيما اجتازت المطبخ، وبعد أن رحلت أطلق صرخة حادّة تنم عن الغضب والاحباط. بالطبع! لم يعرف ماكس أن أمه سترجع في غضون دقيقة، ولا يجدي نفعاً أن تشرح له بهدوء أن رحيل أمه لدقائق لا يعني أنها لن تعود مطلقاً. مسّدت أديل شعر الطفل وهمست له بألطف الكلمات لديها. إن حقيقة عودة أمه قريباً لم تمحُ إحساسه بالتخلي عنه، وهي لا تستطيع أن تفسّر له الأمر. تصلّب ماكس بين ذراعيها، وقوّس ظهره ثم أخذ بالصراخ.

أعرف ما تشعر به! هذا ما فكرت به أديل. فقد تعلمت منذ زمن طويل أن الصراخ وضرب الأرض بالقدمين بقوة لا ينفعان مطلقاً حين يختفي الأشخاص الأحب إلى قلوبنا. حاولت أن ترفعه في الهواء إلى الأعلى على أمل أن ترتفع معنوياته. بالطبع! لا مجال لأن تقوم فويب وآندي بترك هذا الصغير يذوي في مدرسة داخلية، ويمضي معظم عطلاته المدرسية مع أناس لا تربطه بهم علاقة حقيقية.

لحسن حظ أديل، عادت فويب على الفور، وتوقف ماكس عن الصراخ. بدا سعيداً تماماً وهو يلتقط كنزة أمه بقبضتي يديه فيما هي تزيل قطع الصحن المكسور. حتى إنه نظر إلى أديل وابتهج وجهه لشعوره بالأمان مجدداً. شعرت أديل بانقباض في قلبها. بدا ماكس محبباً جداً بشعره الأشعث وابتسامته الخالية من الأسنان، ورائحة العطر التي تفوح منه. هذا كل ما استطاعت التفكير به كي لا تدبر مكيدة لخطفه.

لطالما شعرت أن لابتسامات الأطفال تأثيراً على دفاعاتها المعنوية هو أشبه بتأثير الحامض الكاوي. كانت فويب على وشك الانتهاء من تنظيف الفوضى التي أحدثتها أديل حين قالت هذه الأخيرة: «فويب! أنا آسفة حقاً لانكسار الصحن و... و... لمزاجي السيء أثناء الغداء أيضاً. لم أكن ضيفة لبقة. كان ذهني مرهقاً بالكثير من الأشياء أثناء تناول الغداء، ولا شيء منها متعلق

بك بالطبع».

ألقت فويب المكنسة من يدها جانباً، واستدارت لتلقي مؤخرتها على المنضدة، ثم سألتها: «هل الأمر متعلق بنك؟»

- كيف عرفت؟

- بعد النظرات التي رحتما تتبادلانها لا يحتاج المرء إلى عبقرية ليرى أن الأشياء ليست على ما يرام بينكما.

- هل الأمر بذلك الوضوح؟

أرخت أديل كتفيها، ثم قالت: «من المفترض بنا أن نخادع بقية أفراد العائلة، لكن الأمر كله سوف يتحول إلى كارثة».

أمالت فويب رأسها إلى كتفها، ثم نظرت إلى السقف وأردفت: «دعيني أخمن... فكرة مخادعة الأقارب هي...».

أومأت المرأتان معاً وتكلمتا بصوت واحد: «... فكرته!»

سألتها أديل: «هل أنت جيدة في قراءة الأفكار كما أنت جيدة في الطبخ؟»

ضحكت فويب، وقالت: «يبدو أنك نسيت أن نك وآندي يملكان شخصيتين متشابهتين، اعتدت أن أتعايش مع مثل هذه السيناريوهات السخيفة على مر السنين».

- إذاً ما هو سرّك؟ كيف تمكنت من الاستمرار في العيش معه من دون أن تخنقيه أثناء نومه؟

ابتسمت فويب ابتسامة حزينة، وقالت: «اتبعت بعض الأساليب المجدية. إن العيش مع الكتب يفتح أمامك منجماً من المعلومات النافعة. تبين لي أن التعامل معه كما لو أنه طفل كبير ذو مفعول سحري في الواقع. أنا أتجاهل سلوكياته السلبية وأمتدح الإيجابية».

تجاهل السلوكيات السيئة! هل ذلك ممكن في حالتهما؟ كلما أظهر نك شيئاً من وقاحته يبدو الأمر أشبه بعود ثقاب يلتقي بورقة. أتستطيع فعلاً أن تتعلم كيف تتعايش مع أساليبه في معاملة النساء.

- تعلّمت كيف أتكيف مع الظروف وأن أسترخي قليلاً. لم أعد أكترث

للصغائر، إنني أسير مع التيار.

هزّت فويب كتفيها، وأردفت: «أصبحت معتادة على نمط حياته الآن».

ضحكت أديل فاهتز جسم ماكس بين ذراعيها، وغرغر الطفل ضاحكاً أيضاً من دون أن يدري ما المضحك في الأمر. تقدمت فويب وأخذت ماكس من بين ذراعي أديل.

- عليك أن تتذكري قبل كل شيء أن كل ما يفعلونه في الحياة هو مجرّد اختلاق الأوهام. إنني لا أعرف عن نك، لكن آندي ينسى دوماً أن روايته عن الحقيقة ليست هي القصة الحقيقية.

تجهّمت أديل، فهي لم تفكر في ذلك من قبل. أهذا هو السبب في جعل أديل الخارقة شبحاً ملازماً لها؟ ماذا لو كان نك يستطيع أن يرى من خلال الوهم الحقيقة التي تخفيها عن نفسها؟ لم يعرفها نك عندما كانت طفلة خرقاء تجد صعوبة في التقرب من الأصدقاء وفي الحصول على علامات يتوقعها والداها. عملت بجهد لتتحول إلى ما هي عليه الآن؛ المرأة التي أحبّها نك.

- علي أن أذهب وأغيّر حفاض الطفل.

رفعت فويب ماكس بين ذراعيها، واتجهت به نحو الباب.

- فويب!

وضعت فويب يدها على إطار الباب، والتفتت نحوها.

ابتسمت أديل. وقالت: «شكراً لك».

- لا مشكلة! كلتانا واقعتان في الاشكالية نفسها، وعلينا أن نتحد معاً.

* * *

أمسك نك بعجلة القيادة، وحاول ألا يجعل الكلمات التي تتسارع في رأسه تنطلق في صرخة طويلة مستمرة، فهذا لن يخدم مطلقاً مخططه الخارق.

أمل أن تشكل هذه الزيارة الفرصة المثالية ليظهر لأديل مدى سعادة آندي وفويب، وكيف استطاعا أن يجعلا أسلوبي حياتهما يتناغمان. إلا أن أديل لم ترَ شيئاً من هذا، إذ إنها متشبثة بفكرة استحالة نجاح العلاقة، ولن تتخطى هذه الفكرة كما يبدو. المخيف في الأمر أن نك خشي أن يكون على وشك الاقرار

بهذه الفكرة بدوره.

أين هي تلك المرأة المرحة الجذابة التي تزوجها؟ لطالما كانت أديل قوية وقادرة على التحمل بدرجة كبيرة، إلاّ أنه يمثل الجزء المرح في حياتها. حين التقيا للمرة الأولى، وضع نك يده على قلبه وأقسم أنها المرأة المثالية، وظل يؤمن بذلك حتى بعد شجارهما الكبير. لم تفقد أديل بريقها بالنسبة إليه إلاّ عندما طردته كلياً من حياتها. إن جزءاً منه غاضب بسبب ذلك، فهي لم تنوي الوفاء بالعهود التي قطعتها حين تزوجا. سيطر الغضب عليه، وأدرك أن عليه أن يُخرج بعضاً منه قبل أن ينفجر في داخله.

- بحق الله! ماذا دهاك أديل في ذلك المكان؟

لطالما أرادت أديل المقاربة الصريحة، وها هو نك يقدمها إليها الآن. لم تبعد نظراتها عن النافذة، لكنها أجابت بصوت كئيب متعب: «لن أتكلم معك وأنت بهذا المزاج».

- بهذا المزاج؟ أتعنين فظاً كما تصرفت أنت في منزل آندي وفويب؟

أغمضت أديل عينيها، وقالت: «لم أقصد أن أكون فظة. توقف عن مناقشة هذا الموضوع».

- لا! لن أتوقف. لقد أخجلتني أمام أصدقائي. إذا ما فعلت أمراً كهذا ثانيةً فـ...

- ماذا؟ أتطلّقني؟ فات الأوان لتهديد كهذا، أتذكر؟

أطبق نك أسنانه حتى أصبحت العضلات على جانبي فكيه متصلبة. شغّل المساحات ليزيل المطر المتساقط بقوة على السيارة. خرق هذا الجو الصوت الرنان لآلة معرفة الاتجاهات عبر القمر الصناعي: «المسافة ثلاث مئة قدم. استمر في السير على الجهة اليمنى».

كشرت أديل معبّرة عن ازدرائها، وسألت: «ماذا يعني هذا؟»

حاول نك أن يبقي صوته معتدلاً، وأجاب: «يعني أن الممر إلى اليسار على وشك أن يؤدي إلى طريق منحدر، وعلينا أن نبقى إلى يمين الطريق العام».

- ألا يمكننا أن نطفىء هذه الآلة الغبية؟

أزاح نك عينيه عن الطرق قليلاً، ونظر باتجاه أديل: «ما الذي يزعجك حقاً بشأن نظام تحديد الاتجاهات هذا؟»

تصلبت أديل، وأجابت: «لا يزعجني. كل ما في الأمر أنه غير ضروري. نحن على الطريق العام، وسنتوجه شمالاً على مدى الأميال المئة القادمة. هذه الآلة تقول كل ما هو واضح».

- أنت تكرهينها.

تمايلت أديل في مقعدها: «أنا... آه...!»

- وهل أخبرك بسبب كرهك لها؟

استدارت أديل لتنظر إليه. كان على وشك أن يتعامل معها كطبيب نفساني؟

- أنا جاهزة للاستماع، أيها المعلّم.

- أنت لا تحبين أن يستلم القيادة أحد سواك، حتى لو كان آلة تسهّل حياتك.

- هذا ليس صحيحاً. أنا أستعمل الآلات أثناء عملي دائماً.

- هذا ليس كلاماً دقيقاً. أنت مستقلة إلى حد مزعج أديل، وأنا متفاجىء لأنك في الواقع تدعين الكومبيوتر يقوم بالكثير من الحسابات لك بدلاً من أن تقومي بها بنفسك.

- حسناً! كان هذا جواباً راشداً. أنا سعيدة أنك أخذت الوقت الكافي لتفكر بهذا.

- لا تكلميني بهذه الطريقة.

- أنا فقط أحاول أن أكون الراشدة في هذا السيناريو.

- حسناً! من المؤسف أنك لم تفكري بهذا ونحن في منزل آندي وفويب، أليس كذلك؟ تصرفت كطفلة مدللة، فلا تتعالي أمامي الآن وتقولي إنك الراشدة.

نك محق في ما يقوله. بدا صوتها لطيفاً حين أجابت بعد دقيقة قائلة: «اعتذرت إلى فويب بينما كنت في السقيفة».

- حسناً! أنا سعيد لأنك تصرفت كما ينبغي. هما يشكلان زوجاً رائعاً.

أوقف نك المساحات، وتجاوز عربة كبيرة: «لِمَ تصرين على عدم إظهار المودة للآخرين، أديل؟»

تجهمت أديل. أهي حقاً غير ودودة؟ سألته: «هل هذا صحيح؟»

هزّ نك رأسه، وقال: «أنت تبعدينني عنك».

- لا تكن سخيفاً!

- تفتحين قلبك لمنى، بينما ترفضين التحدث إلي. لِمَ تتجنبين الحديث معي دائماً؟

إنها لا تعرف الجواب حقاً. كل ما في الأمر أنها تجد من السهل عليها أن تتصرف على سجيتها مع منى، فمنى صديقة وفية، وعالمها لن ينهار إذا ما تشاجرتا. لكن الأمر أكثر خطورة مع نك، فهي لا تريد أن تخذله. لكنها خذلته اليوم مهما حاولت أن تجد أعذاراً للدفاع عن نفسها.

هزّ نك رأسه ثم أشار إلى يافطة بجانب الطريق، وقال: «محطة استراحة. أحتاج إلى قسط من الراحة».

٦- لست صديقتي!

بدا نك سعيداً، وسرعان ما توجه إلى أصغر مبنى في محطة الاستراحة، أما هي ففضّلت أن تسير ببطء أثناء عبورها موقف السيارات التابع للمحطة. لفتت انتباهها المناظر الطبيعية الخلابة التي بدت لها قديمة، ومنعزلة إلى درجة تثير الكآبة في النفس. رأت التلال المغطاة بالأعشاب الخضراء، والتي تنحدر نحو وادٍ يحتضن بين صخوره جدولاً صغيراً. توزعت أعداد من الخراف حول ضفتي الجدول التي وصلت إليه من الحقول المجاورة.

ملأ الهواء النقي البارد رئتيها عندما أخذت نفساً عميقاً. إن مجرد تواجدها في هذا المكان يبدو أمراً منعشاً.

بدا واضحاً أن هذه المحطة ليست تابعة لإحدى الشركات العملاقة، لأنها تفتقد إلى المطاعم التي تقدم الوجبات السريعه وآلات البيع. شعرت بالارتياح عندما رأت طاولات وكراسٍ خشبية، ونباتات حقيقية.

وقف نك في الصف منتظراً دوره كي يطلب القهوة، أما هي فوقفت إلى جانبه بصمت. عندما وصلت الطلبية سارع إلى إعطائها كوباً كبيراً من القهوة بالحليب بالإضافة إلى أشهى قطعة كيك بالشوكولا رأتها في حياتها. بعدئذٍ سار نحو إحدى الطاولات، وجلس من دون أن يتلفظ بكلمة واحدة.

اختارت أديل الكرسي المقابل واسترخت عليه.

- تحدث إلي، نك.

حرّك نك قهوته، لكنها لاحظت أنها لم تره في مثل هذه الحالة من قبل. أين اختفت ردوده الذكية ونكاته؟ فجأة، شعرت أنها تفتقدها. لطالما امتلك نك قدرة تثير الانزعاج على التملّص من شعوره بالغضب.

- أنا آسفة لأنني خذلتك. أنا آسفة فعلاً.

سقطت الملعقة من يده من فرط المفاجأة، أما هي فأدركت أنها لم تعتد التلفظ بهذه الكلمة.

- كنتُ منشغلةً جداً بأفكاري عندما اقترحت عليّ هذه الزيارة.

- لم أظن أن زيارة أصدقائنا ترتدي كل هذه الأهمية. ظننت أننا سنستمتع بها.

- إنهم أصدقاؤك أنت، لذلك لم أشعر بالارتياح أبداً. ماذا أخبرتهم عني؟ ما حكاية "أديل الشهيرة"؟

ردّ مستهجناً: «عظيم! هل سأجد نفسي في ورطة لأنني قلت أموراً لطيفةً عن زوجتي؟»

زمّت أديل شفتيها، وفكّرت ملياً قبل أن تجيب. هل يمكنها أن تقول له إنه يصعب عليها الاعتراف بما تشعر به من ضغوط؟ إنه لا يكف عن القول: «أنتِ رائعة جداً يا أديل «أو» يمكنكِ أن تفعلي ما تريدين يا أديل». بدا أنه يتوقع منها على الدوام أن تتقبل كل ما يقوله عنها.

- ليس الأمر كذلك على الإطلاق. أعرف أنك تثق بي كثيراً، لكن ذلك يشكل ضغطاً كبيراً عليّ. إنك تشبه والديّ من هذه الناحية، لكنني لم أرغب بأن أخيّب ظنك.

وضع قهوته على الطاولة وحدّق فيها: «حسناً! هذا ما فعلتِه بالضبط».

- أرأيت؟ ما إن أعترف بأنني لست على مثال صورة الكمال التي ترسمها لي حتى يخيب ظنك بي. أريد فقط أن أكون أديل... من دون أي أوصاف، حتى لو كانت من نوع «ناجحة» أو «شهيرة» أو حتى «رائعة». أريد أن أكون كما أنا فقط.

- لكنك تتمتعين بكل هذه الصفات مجتمعة.

- إنني لست ذلك الشخص الذي تظنه.

- بدأت ألمس هذه الحقيقة بنفسي.

فجأة، أرادت أن تتراجع كلياً، وأن تمنعه من رؤية قناعها الزائف. بدا من

المؤلم بالنسبة إليها أن تسمح له أن يكتشف الحقيقة تدريجياً. جلسا بصمتٍ يرتشفان القهوة، كما انشغلت أديل في تناول قطعة الكيك بالشوكولا. بدأ نك بالكلام ما إن وضع كوبه على الصينية.

- لعلني أخطأت في طلب المستحيل منك والمبالغة في تقديرك كما تقولين، لكنك فعلتِ العكس، فأنتِ لا تثقين بي بما فيه الكفاية.

تجمدت يد أديل على الكوب الذي كانت على وشك وضعه على الصينية، وفتحت فمها كي تتكلم، لكنها توقفت عندما سقط الكوب من يدها. رفعته بعناية، ولم تتركه إلا عندما تأكدت من ثباته. أخيراً قالت من دون أن تحيد بنظرها عن الكوب: «هل يتعلق الأمر بالوظيفة؟ لأنه، كما تعرف...».

- أنت تعودين دائماً إلى موضوع تلك الوظيفة المشؤومة في أميركا، أليس كذلك؟ هل ستسامحينني عليها في يومٍ من الأيام؟

لم تتفوه أديل بكلمةٍ واحدة.

- أعتقدت أن باستطاعتنا أن نجد حلاً ما. عرفت أننا سنلاقي صعوبة في الأشهر القليلة الأولى، لكنها ليست نهاية العالم. كان بإمكانك أن تأتي معي ولو لزيارة قصيرة.

- لكن وظيفتي، ومنزلي...

- إنها الأمور الأهم في حياتك. أعلم ذلك الآن.

- لم أستطع أن أتخلى عن كل شيء دفعةً واحدة، وأنت لم تعطِني الوقت الكافي كي أضع خطةً ما. قلتَ لي: «إما أن تغادري الآن أو لا تغادري مطلقاً». بماذا تظن أنني شعرت عندما علمتُ أنك لم تتوجه إلى المقهى كي تهدئ أعصابك، أو عندما تلقيت رسالتك التي تفيد بأنك سوف تتصل بي عندما تهبط طائرتك في مطار لوس أنجلس؟

هز نك كتفيه وشبك ذراعيه فوق صدره، ثم استرخى في مقعده وقال: «أنتِ التي نصحتِني بأن أستقل أول طائرة».

- كنت غاضبة يا نك، ولم أظن أنك سوف تأخذ نصيحتي على محمل الجد!

- إذاً كيف تفسرين عدم إجابتك على مكالماتي الهاتفية، فيما لو أردتِ

تسوية الأمور لاحقاً؟ إن عدم ردك أوضح لي موقفك تماماً.

ابتلعت أديل ريقها. لا يمكنها أن تخبره الآن وفي هذا المكان بالذات، سبب عدم ردها. شعرت بحرقةٍ في عينيها، إذ كيف ستتمكن من إبلاغه بأن شعوراً غامراً بالسعادة اجتاحها في البداية بسبب ما أملت أن يكون أسعد حدث في حياتها، لكن عندما هيأت نفسها بعد ذلك كي تكالمه هاتفياً، وتقول له «إنك على وشك أن تصبح أباً» لم يعد هذا الأمر صحيحاً.

عجزت عن إبلاغه بالأمر كما عجزت عن إبلاغ أي شخصٍ آخر. وحدها منى عرفت به، لا لسببٍ إلا لأنها كانت معها هناك في المستشفى. أمسكت بيدها، ثم رافقتها إلى منزلها، وضمتها بحنانٍ إلى أن جفّت دموعها. كان يجدر بنك أن يقف إلى جانبها ويساندها، لكنه كان على بعد آلاف الأميال، ولم تكن قادرةً على التحدث معه، لذا شعرت أديل بغضبٍ شديدٍ تجاهه. ارتعشت شفتها قليلاً، وكاد الارتعاش يمتد إلى جسدها بأكمله. كان نك بعيداً عنها في المرة الوحيدة التي احتاجته بقربها. أدرك الجانب المنطقي من دماغها أنه لم يعرف بالأمر، وأنه سيتواجد إلى جانبها فيما لو علم به، لكن الجانب غير المنطقي عجز عن مسامحته. بطريقةٍ ما، أدّت هذه الواقعة إلى فشل زواجهما. وبقي الغضب يغلي في أعماقها حتى هذه اللحظة.

- لم يعد الأمر يهم الآن يا نك. نعرف كلانا أن الأمر كان سينتهي عاجلاً أم آجلاً. لم ننجح بالعمل كفريق واحد.

جاء صوته خالياً من العاطفة عندما تكلم: «هذا ما تقولينه أنتِ».

جال بنظره في أنحاء الغرفة، ولاحظت أديل أنه يركّز نظرته على أمرٍ أثار انتباهه. التفتت فرأت في زاوية الغرفة امرأة مع طفلها. انشغلت المرأة في محاولة تهدئة الطفل حتى تسخن زجاجة الحليب. عادت أديل والتفتت نحوه فبدا لها يائساً. هزّ نك كتفيه في محاولة للتخلص من هذا الشعور.

- بالإضافة إلى أن محاولتنا إنجاب طفلٍ كانت بمثابة الكارثة.

أومأت موافقةً، لأن الكلمات علقت في حنجرتها. تمنت لو أنه يجعل من الأمر مزحة كما اعتاد أن يفعل خلال تلك الفترة المنصرمة. اعتاد نك أن

يضمها في كل مرة تظهر فيها نتيجة فحص الحمل سلبية، ويقول لها: «لا تهتمي، إننا نستمتع في المحاولة».

أحبته لأنه عرف كيف يجعلها تبتسم، بالرغم من معرفتها أنه كان يشعر بخيبة أملٍ مريرة في تلك الأوقات. أرادته أن يفعل ذلك الآن، وأن يطرد كل تلك المشاعر المريرة. لكنه بدا خالياً من كل الانفعالات، وكأن تلك الروح المرحة غادرته إلى الأبد. زاد الأمر سوءاً معرفتها أنها هي التي تسببت في هذا التحوّل لأنها أوصلته إلى حافة الانهيار، وهذ الأمر يدمره تدريجياً.

رفع نك الصينية: «هل انتهيتِ؟»

أجل، لقد انتهت، وانتهى كل شيء.

* * *

كانت الشمس تميل إلى الغروب عندما عادا إلى الطريق الرئيسية. اصطبغت الغيوم بوهجٍ دافئ بعد أن كانت تعكس برودة الفولاذ. راح نك يحدّق من خلال زجاج نافذة السيارة، وجلست أديل في مقعد السائق.

- كيف ستتصرف أثناء الحفلة، نك؟

- ماذا تعنين؟ سوف ندخل ونبتسم ونتحدث ونأكل، ثم نغادر.

تأوهت أديل وقالت: «لم تفكر بهذه الأمور... كعادتك. أليس كذلك؟»

انحنى نك إلى الأمام قليلاً في مقعده: «بالتأكيد لا».

- لا داعي للسخرية الآن.

صحيح أن لا شيء يدعو إلى السخرية، لكن ذلك جعله يشعر بالتحسن. احتلت أديل موقع القاضي والشاهد في علاقتهما، ولم تكن على استعداد لمقاسمته السلطة. فهم ذلك مرةً أخرى الآن.

- حسناً... حسناً! ما هي الأمور التي فاتتني؟

- فكّر قليلاً في حالتنا! يبدو وجهانا كئيبين. لا أحد سيصدق أننا نتشارك أحلام المراهقين. اكتشفت فويب حقيقة الأمر في غضون لحظةٍ واحدة.

رفع حاجبيه إلى الأعلى: «هل فعلت ذلك؟»

- يسهل على النساء كشف أمورٍ كهذه. ستعرف شقيقاتك بالأمر بأسرع

من لمح البصر.

- يتعين علينا أن نبتسم أكثر كي نتمكن من إقناعهن.

التزمت أديل الصمت، ولم يرافقهما في جلستهما هذه سوى صوت المحرك. بدأ المطر الغزير بالتساقط على الزجاج الأمامي، وأدرك نك أن الحبيبات المتساقطة ليست مطراً في الحقيقة، بل شذرات ثلج. شغّلت أديل مساحات الزجاج، وبدا كأن حركة المساحات دفعت بدماغها للعمل مجدداً.

- سوف يبدو الأمر وكأننا نكذب عليهن نك. لا أحب هذا الأمر.

- كل ما يتعين علينا فعله هو أن نعامل بعضنا بلطف، وأن نتحدث ونبتسم قليلاً. إننا قادران على هذا. أليس كذلك؟ لن نضطر إلى أن نتعانق في حلبة الرقص أو أي شيء من هذا القبيل.

- حسناً! يبدو أن هذه هي خطتك. سوف نصل معاً، ثم نختلط بالآخرين قدر الإمكان، وسوف نجتمع بين حين وآخر كي نجري تقييماً للحالة. ستحرص شقيقاتك على تزويدي بآخر أخبار أولادهن وبناتهن. سيأخذ هذا الأمر حيّزاً كبيراً من الوقت.

أومأت بينما كانت تحدق في الطريق قبل أن تتابع قائلة: «أجل، قد تنجح هذه الخطة، لكنها ستنجح فقط في حال ابتعادنا عن بعضنا البعض قدر الإمكان».

بدا الأمر في غاية الغرابة: الافتراق من أجل إقناع الجميع بأنهما ما زالا معاً. لاحظا أن تساقط الثلج يتضاءل كلما اتجها شمالاً، وأدركا أنهما مرّا تحت غيمة ثلجية، وأنهما قد تجاوزاها. وصل نك وأديل إلى مقاطعة لايك، ولاحظا أن الحرارة انخفضت أكثر، كما شاهدا طبقة الثلج الرقيقة التي نشرت بساطها على الأودية وفوق ثنايا القمم المتشققة.

لم يكن ذلك ثلجاً جديداً، ولا بد أنه تساقط في الليلة الماضية. لم يكن نك متأكداً من تساقط المزيد من الثلوج. لكنه يعرف امرأة تستطيع تأكيد هذا الأمر.

- أديل؟ ما هي توقعات الطقس في هذه المنطقة لهذا اليوم؟

ترددت قليلاً، وخمّن أنها تفكر بالتظاهر بالجهل. لكنها فضلت أن تتجاوب مع هذا الطلب، وقالت بصوتٍ متعب: «ستمطر، مع إمكانية سقوط زخات جليدية، وهناك انفراجات مع قدوم المساء. هذا ما سمعته في نشرة الطقس على أي حال. لا بد أن ما شهدناه كان ذروة العاصفة».

- حسناً! يبدو أن حالة الطرقات مقبولة حتى الآن، لكنني أخشى أن تزداد سوءاً، لأن من شأن ذلك أن يؤخرنا.

تطلع إلى ساعته قبل أن يكمل: «لم تصل الساعة حتى الرابعة بعد. أعرف أننا سنصل مبكرين قليلاً عن الموعد المقرر، لكنني أفضل أن نأخذ قسطاً من الراحة».

ابتسمت أديل بسخرية: «كن حذراً نك، فأنت تبدو كأنك غاية في التنظيم».

- ما أردت قوله في الواقع هو: ألا يجدر بنا أن نتجه جنوباً إذا كنا ذاهبين إلى سكوتلندة؟

- ها أنت تبدو الآن أقرب إلى نك هيوز الذي أعرفه.

قطعت جملتها هذه قبل أن تكمل: . . . والذي أحبه. إلا أن نك ضحك على أية حال.

- لا أحب أن أخيّب ظن سيدة.

أسند رأسه على مسند الرأس وأغمض عينيه. أدركت أديل أن ما قاله جاء عفوياً، فهي ليست الوحيدة التي تخذل شريكها. كان بإمكانه أن يتفادى الحقيقة بنكتة، لكنه أرادها، ولو لمرةٍ واحدة فقط، أن تنظر إليه كما اعتادت أن تفعل في أولى أيام زواجهما. اعتبرته حينها رجلاً رائعاً. في الواقع نك القديم لم يتغير، لكن كل شيء يقوله أو يفعله هذه الأيام يبدو خاطئاً.

- هيّا، بالله عليك!

فتح نك عينيه واكتشف سبب ثورة أديل. امتدت أمامهما سلسلة من أضواء الفرامل الحمراء، ولم يطل بهما الأمر كثيراً حتى انضما إلى صف السيارات. كانت السيارات تتحرك بمعدل عشرة أميال في الساعة على الأكثر.

- يا للروعة! إذا لم نستأنف المسير بسرعة فإننا سنفوت حفلة العشاء.

سألت أديل وهي ترش الزجاج بسائلٍ منظف للمرة الخمسين: «أتعتقد أن الثلج هو السبب؟ ندرك جميعاً أن طبقة ثلج بسيطة كافية لإيقاف نظام النقل البريطاني العظيم».

- لا يفترض ذلك. لاحظت أن عربات رش الملح بدأت عملها، لذلك فالطريق مفتوحة. يُحتمل أن يكون حادثاً ما قد وقع بسبب أحد المجانين الذي قاد سيارته بسرعةٍ فائقة لا تناسب هذه الأحوال الجوية.

قالت بصوت خفيض: «أتمنى ألا يكون حادثاً خطيراً».

- وأنا أيضاً.

كادت السيارة تتوقف بعد مرور خمس دقائق.

قالت أديل مشتكية: «تشنجت عضلات رجلي من فرط الدوس على الفرامل. أفضل أن أقف تماماً على أن تزحف السيارة بهذا الشكل. لا أريد أن أعلق في هذه الزحمة الخانقة. أتذكر الحادثة التي تناقلتها الأخبار قبل سنواتٍ قليلة؟ علق مئات الأشخاص بسبب تساقط الثلوج في آنكليا الشرقية، واضطروا إلى أن يمضوا الليل في سياراتهم».

- لن يحدث هذا الأمر هنا.

نظرت أديل إلى عدّاد السرعة.

- وما أدراك؟ إننا لا نقطع أكثر من ميلين في الساعة. قد نضطر إلى العودة من حيث أتينا إذا استمرت هذه الحالة.

عبس نك لكنه لم يقل شيئاً، في حين تطاولت أديل بعنقها كي تنظر من خلال الزجاج الخلفي للسيارة.

- هناك ما لا يقل عن مئة سيارة خلفنا. يبدو أننا لا نملك الكثير من الخيارات.

بدأت فكرة غامضة بالتشكل في خلفية ذهن نك.

- أظن ذلك.

وجّهت نحوه نظرة يائسة: «لا تقل لي إنك خضعت لدروس في فن المجازفة،

وإنك ترغب في القفز فوق تلك السيارات كلها إلى أن تصل إلى المقدمة».

- إنه أمر مغرٍ، لكنني لن أفعل.

قرصته أديل في ذراعه.

- جئت إلى هذه المنطقة مراتٍ عديدة، أتذكرين؟ أعتقد أننا لسنا بعيدين عن كيندال. يُفترض بنا أن نصادف تقاطع طرق بعد ميلٍ أو نحو ذلك، إذا لم أكن مخطئاً. نستطيع عندها أن نسلك الطريق حتى البلدة، وسنصل بعد ذلك إلى الطريق رقم 6. تسير هذه الطريق بشكل متوازٍ مع الطريق الرئيسية. هكذا يمكننا أن نتجاوز الازدحام ونصل إلى الطريق الرئيسية مجدداً عند التقاطع التالي.

- تبدو هذه خطة محكمةً بشكل رائع.

انحنى نك قليلاً بقدر ما يسمح به حزام الأمان، فنقرت أديل بإصبعها على جهاز الملاحة الموجّه بالأقمار الصناعية.

- أترى؟ إنه لا يقول شيئاً. إن جهازك الصغير هذا لا يستطيع الإتيان بفكرةٍ كهذه.

- لا! فهو يشبهكِ كثيراً.

- لا تبدأ بمقارنتي مع ذلك الشيء. إنني أكرهه.

ضحك نك لكلامها، وقال: «حسناً! لاحظتُ تشابهاً معيناً بينكما. إنه مبرمج كي يقودنا بأقصر الطرق إلى إنفرغارنغ، لذلك ترينه يصر على تلك الخطة بعناد، ومهما كلّف الأمر. إننا لن نستطيع الاستفادة منه إذا تجاهلنا تعليماته».

- هل تقصد أنني أتصرف كآلة؟ وأنني لا أستطيع...

- اهدئي! لا أستطيع تحمّل تطلباتك في هذه اللحظة.

تزايدت كثافة جو السيارة بسبب أنفاس أديل المتسارعة: «حسناً! قلت لك إنني سوف أستشير محامياً حالما نعود. لا نستطيع الانفصال بسرعةٍ أكبر! ما كان يجدر بك أن تطلب مني المجيء معك إن كنت لا تريدني بقربك».

انحنى قليلاً إلى الأمام، وضغط على زرٍ في جهاز الملاحة الموجه بالأقمار

www.elromancia.com

الصناعية. بدا صوته ناعماً عندما قال: «لم أقصدك أنت، بل قصدت الجهاز. يُفترض به أن يُصدر ضجيجاً إذا ضللنا الطريق. حان وقت إقفاله والاعتماد على قدراتنا الذاتية».

غامر نك بإلقاء نظرة عليها أثناء تركيزها على الطريق الممتدة أمامها. لاحظ أن كتفيها انحنيا قليلاً، لكن بقايا واهية من ابتسامةٍ تفيض بالثقة بالنفس بقيت مرتسمةً حول شفتيها. اقترب منها، وراح يمسّد ساعدها الذي أسندته على مقبض التروس ثم قال: «أستطيع أن أتعامل معك، أما بالنسبة إلى هذا الجهاز فأعجز عن التأثير كثيراً فيه».

تبادل الاثنان الابتسامات في ما بينهما، وبدا للحظة أن كل التوتر قد تلاشى. للمرة الأولى اتحد الطرفان ضد عدو مشترك، حتى لو كان هذا العدو جهازاً كهربائياً. استعاد نك بعض الأمل في أن يتمكن من إنشاء حلفٍ يضمه وأديل من أجل مواجهة العالم معاً مجدداً، وذلك بدلاً من أن يواجها بعضهما بعضاً. بدا له أن أديل، في هذه اللحظة بالذات، تردد أفكاره.

ابتسمت في وجهه ابتسامةً حلوة، فشعر بالقشعريرة تسري في جسده بأكمله. أخيراً فتحت فمها، فسقطت كل الآمال التي علل نفسه بها.

- ألا ترى معي يا نك أننا ننجح أكثر كصديقين؟ تمكّنا أخيراً من اتخاذ قرارٍ بشأن مستقبلنا من دون أن نضطر إلى التجاذب بشأنه، وإذا استطعنا أن نحافظ على قرارنا هذا لما تبقى من عطلة الأسبوع، فسوف نعود إلى المنزل من دون مشاكل، وهذا أفضل بالنسبة إلى أفراد عائلتك أيضاً. ما إن يعرفوا الحقيقة حتى يدركوا أننا نستطيع الحفاظ على علاقة مهذبة في ما بيننا، وهكذا سيسهل عليهم تلقي خبر انفصالنا.

جالت فكرةٌ تنضح بالتهكم الشديد في رأسه: يا لك من امرأة طيبة القلب!

إن هذا الكلام المعسول الذي يحدد ما هو الأفضل بالنسبة إلى أفراد العائلة هو مجرد كلام فارغ. إن كل ما تريده أديل هو ألا تكون الشخص السيئ في هذا الاجتماع، وأن تكون مسرورة إلى أقصى الحدود في انسحابها من زواجهما من دون أن تشعر بالذنب.

- كنا صديقين رائعين ذات مرة، وذلك قبل أن نبدأ بالخروج معاً. أليس كذلك؟

أومأ نك موافقاً، فتابعت تقول: «حسناً! نستطيع إذاً أن نعود إلى سابق عهدنا. أليس كذلك؟»

لماذا تحرص على إنهاء كل جملة تقولها بسؤال يتطلب منه جواباً بنعم أو لا؟ هو لا يرغب بالموافقة معها على كل شيء تقوله. ألا تستطيع أن تتركه وشأنه؟

أجاب لأنه مضطر للإجابة: «نجحنا في ذلك ذات مرة».

- بالضبط، لكن كصديقين.

- حسناً! لنكن صديقين.

رد بذلك باستهزاء في الوقت الذي كانت تغيّر فيه تروس سرعات السيارة كي تمضي قدماً من جديد، لكنها لم تلاحظ سخريته. المشكلة هي أنه لا يريد علاقةً مبنية على الصداقة فقط مع أديل. أدرك نك أنها مختلفة منذ اللحظة الأولى التي تعرّف بها عليها في حفلة عشاء أقيمت في منزل صديق مشترك. بدت مميزة إلى درجة أنه أُخذ بسرعة بديهتها واندفاعها، أما مظاهرها الخارجية المهذبة فكانت مجرد دلالة بسيطة على الأمور التي تغلي في أعماقها.

استغرقه الأمر وقتاً طويلاً قبل أن يتمكن من كسر ذلك الغلاف القاسي الذي تحيط نفسها به، وقبل أن توافق على موعدٍ حقيقي. تحقق من صحة كل تخيلاته بشأنها عندما عانقها في نهاية ذلك المساء. أدرك أن أديل امرأة عاطفية وحساسة جداً، لكنها تحب إخفاء هاتين الميزتين. أيقن بعد وقت قصير عجزه عن تحطيم دفاعاتها الأخيرة. اكتشف وجود غلافٍ قاسٍ بعد آخر تحت الغلاف القاسي الخارجي لهذه المرأة. تذكّر أيضاً أنها لم تستسلم له فعلياً بالكامل. احتفظت أديل بجزءٍ منيع من ذاتها غير قابل للخضوع. عزا نك السبب في ذلك إلى أيام طفولتها، عندما تركتها والدتها وهي في الثامنة من عمرها كي تتمكن من التجوال في أنحاء العالم مع والدها المسافر على الدوام. فكّر يومها أن الوقت كفيلٌ بتليين ذلك الموقف القاسي الذي يكمن في أعماقها، لكنه مضطر الآن للاعتراف أن هذا الأمر بعيد المنال.

انتشلته أديل إلى عالم الواقع بصرخةٍ منها: «أخيراً! بإمكاني رؤية الطريق الترابية. سوف نصل إلى طريقنا الصحيحة في غضون دقيقة أو اثنتين. يتعيّن عليك أن توجهني، لأنني لم آتِ إلى هنا من قبل، ولذلك فإنني سأضيع تماماً من دونك».

تمنى في هذه اللحظة أن تتمكن من سماع الجملة التي نطقت بها بنفسها. أراد أن تثق أديل به لما تبقى من حياتها، لكنها حصرت مدة ثقتها به بساعةٍ واحدةٍ من الزمن.

انحنت أديل إلى الأمام قليلاً، وحاولت أن تنظر إلى الغيوم فوقهما. اقترح نك أن يتبادلا مكانيهما بعد انتهائهما من الطريق الرئيسية، قائلاً إن من الأسهل له أن يقود السيارة بنفسه من أن يوجّه التعليمات إليها. شعرت أديل بسعادةٍ غامرة لأن ذلك سيعطيها فرصة لإراحة ساقها اليسرى. يُضاف إلى ذلك أن المناظر الطبيعية المنتشرة من حولهما بدت خلابة جداً، وهي أرادت التمتع بمناظر الجبال والوديان السحيقة التي تشكلت في العصور القديمة، بدت المنطقة ساحرة بثوبها الأبيض. أما في المناطق البعيدة عن الطريق فكانت الثلوج أكثر سماكة، حتى إن أكوام الثلوج كانت تعلو بوابات المزارع وأسيجتها بعدة أقدام. أثناء تحديقها إلى الأعلى صوب القمم العالية لاحظت الغيوم الرمادية، كما شاهدت رقاقات الثلج التي بدأت بالدوران في الأعلى ببطء قبل هبوطها إلى الأرض. سألته: «أتظن أنه ينبغي علينا العودة إلى كيندال؟ غادرنا تلك البلدة منذ خمس عشرة دقيقة فقط».

هزّ نك رأسه وهو يقول: «لا تتساقط الثلوج بكثافة في هذه اللحظة، وإذا خدمنا الحظ فإننا سوف نصل إلى الطريق الرئيسية قبل أن تسوء الأحوال كثيراً».

- هل أنت متأكد من اتجاهنا؟

- أديل! ألا تستطيعين أن تثقي بي ولو لمرةٍ واحدة؟ سبق لي أن قصدت هذا المكان ثلاث مراتٍ على الأقل.

- إذاً أنت تعرف المكان الذي نتواجد فيه الآن. أليس كذلك؟

ردّ بالإيجاب من دون تردد، ثم توقف كي يستطلع المنطقة المحيطة.

- حسناً! لا... ليس بالضبط. يغيّر الثلج معالم المنطقة كثيراً. لكنني أعرف أننا على الطريق الصحيحة. سيكون كل شيء على ما يرام إذا لم يتملكك الهلع.

- لا أعرف أحداً هنا مصاباً بالهلع.

- لست محتاجاً إلى التطلع نحوك كي أعرف أن كل عضلةٍ من عضلات جسدك بدأت بالتقلص.

- يا لهذا الهراء!

لكنها حرّكت كاحلها قليلاً مع ذلك في محاولةٍ منها لإزالة التشنج الذي هدّد بالتمدّد إلى ربلة ساقها اليسرى. أدركت أن لا علاقة لنك بهذا الأمر، لا بد أن ساقها تشنجت بسبب ازدحام السير.

سدّد نك نظرة باتجاهها، فلفتت حركة رجلها انتباهه.

- آه! انتبهي بالله عليك. سأعمد إلى تشغيل نظام القيادة المتصل بالأقمار الصناعية إذا كنت متوترةً إلى هذا الحد. ينحصر عمل الجهاز في إرجاعنا إلى الطريق الأساسية، لكنه لا يقبل أن نعانده.

انحنى نك قليلاً إلى الأمام، وضغط على الزر، ثم سألها: «هل أنت راضية؟»

عاد ذلك الجهاز الغبي إلى الحياة، وصحّ قائلاً: «سر بخطٍ مستقيم لمسافة٣,٧ أميال».

ابتسم نك بتعجرف ورفع حاجبيه، كأنه يريد أن يقول، أترين؟ كنا نسير على الطريق الصحيحة.

شبكت أديل ذراعيها فوق صدرها بشكلٍ متصالب، وقالت: «افعل ما يحلو لك، وتذكّر بأنني لم أطلب منك تشغيل الجهاز».

- لكنك تشعرين بارتياحٍ أكبر بعد تشغيله. أليس كذلك؟

لا تريد أديل أن تشعر بالارتياح، فالأمر سيان عندها. مدت رجليها فاكتشفت أن التشنج في ربلة رجلها اليسرى قد اختفى بطريقة غامضة.

٧- غريبان ونعجة

- انعطف يميناً بعد خمسماية قدم.

أحدث نك ضجيجاً من فرط المفاجأة، ونقر الجهاز بسبابته بقوة.

- دع الجهاز وشأنه يا نك. إن غايته الوحيدة هي إعادتنا إلى الطريق الرئيسية. أنت قلتَ هذا بنفسك.

سدّد نحوها نظرة متشككة.

- أعتقد أنها طريق أقصر. قلتَ إنك أتيت إلى هنا ثلاث مراتٍ فقط. أليس كذلك؟

- نعم...

- إذاً ما المشكلة؟ نفّذ ما يقال لك مرةً على الأقل.

لم يقل نك شيئاً لكنه أعطى إشارة الموافقة. نظرت أديل من نافذة السيارة، وقالت: «سنعود إلى الطريق الرئيسية بسرعةٍ أكبر إذا حالفنا الحظ. يبدو أن تساقط الثلوج قد خفّ قليلاً، لكنني سأشعر بالسعادة أكثر عندما نغادر الطريق الفرعية».

خفف نك من سرعة السيارة كي يسير في التقاطع. بدت هذه الطريق أهدأ من تلك التي كانا يسيران عليها، لكن الأقمار الصناعية تتمكن من الرؤية من خلال الغيوم والثلوج، وهكذا فهي تعرف إلى أين هما يتجهان. مرّت عشر دقائق، وبدا أنهما تجاوزا طريق الرجوع، وأنهما وصلا إلى حافة العالم. لاحظا غياب الخراف، وهي التي كانت متواجدة على الدوام. تفحص نك المنطقة المحيطة بهما جيداً بحثاً عن أي شيء يدل على اقترابهما من الطريق الرئيسية، وذلك على أمل وصولهما إلى العمران مرةً أخرى.

- هل أنت متأكد من وجودنا على الطريق الصحيحة نك؟

شعر نك بالتوتر. لماذا تعمد دائماً إلى التشكيك به؟ ولماذا لا تستطيع الوثوق به حتى في الأمور الصغيرة؟ معرفته بأنها تتصرف هكذا مع الجميع لم تفده بشيء. أرادها أن تتصرف بشكلٍ مختلف معه، وأن تتخلى قليلاً عن رغبتها بالسيطرة، وأن تثق به ولو لمرةٍ واحدة.

- لا، في واقع الأمر. لكنني جالس هنا مثل ولدٍ مطيع، أمسك بعجلة القيادة، وأنفذ ما يُعطى إليّ من توجيهات. ألا يرضيك هذا؟

- حسناً! تابع القيادة من دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

شعرت بارتجاف يجتاح جسمها، أما جهاز التدفئة في السيارة فلم يبدُ ذا تأثير كبير في هذا الجو الجليدي. قاد نك السيارة بصمت، لكنه رفض أن يستسلم للشعور بالانزعاج. ضاقت الطريق الواسعة بشكلٍ يسمح لسيارتين تسيران في اتجاهين متعاكسين بالمرور، لكن إذا مرّ جرّار أو شاحنة فإن الأمر سيتحول إلى مشكلة. ضاقت الطريق أكثر حتى أصبحت لا تسمح بالمرور إلا لسيارة واحدة مع وجود بعض الفسحات، لكن انعدام السير دلّ على أن سماكة الثلج تتعدى طبقةً رقيقة. أبقى نظره على الطريق أمامه، مع أنه أحس أن أديل تتطلع نحوه. أدرك أنها كادت تصل إلى نقطة الانفجار مع تكاثف الثلج، حيث راحت السيارة تسير بارتجاج فوق الطريق. واجهته أديل بتحدٍ، لكنه أراد أن يُثبت لها أنه أهلٌ لثقتها ولو حتى في هذا الأمر الصغير، وهي التي لطالما اشتكت بأنه لا يستطيع الثبات على أي أمر.

بدا كل شيء على ما يرام في البداية. سارا عبر حقلٍ فسيح، لكن لم يطل الأمر حتى بدأت الأخاديد بالظهور تحت الثلج، لذلك لم يكن بوسعهما أن يعرفا الاتجاه الصحيح. أبطأ نك من سرعة السيارة حتى أوقفها. أغمض عينيه، وانتظر سماع التنهيدة التي كانت على وشك القدوم. اعتادت أديل إطلاق تنهيدة قوية قبل أن تبدأ في توجيه الاتهامات إليه، واعتاد نك سماع هذه التنهيدات مراتٍ عديدة في الأشهر التي سبقت انفصالهما. ألم يكن بوسعها أن تفهم بأنه جاهد كثيراً كي يتشاركا مستقبلاً أفضل سوياً؟ الآن، وبعد أن انتهى

من العمل في أحد أفلام نيم، أصبح بإمكانه أن يختار المشاريع التي سيعمل عليها، فيقضي وقتاً أطول في المنزل ووقتاً أقل في الاختفاء من دون سابق إنذار، كما سيكون بإمكانهما أن يبطئا من وتيرة العمل عندما يرزقا بطفل. استغرب أن يستغرقه الأمر مع أديل عشرة أشهر من دون أن يحصلا على أي نتيجة. بدا له أنه كلما زادت رغبة المرء في الحصول على طفل كلما كان الأمر أصعب. ما من ضمانة تكفل لهما الحصول على هذا الطفل في المستقبل، إذ ستختفي أديل أيضاً من حياته.

أعادته نعومة صوتها إلى عالم الواقع: «نك! أعتقد أنني أرى ضوءاً أمامنا. يُحتمل أن يكون صادراً عن سيارةٍ أخرى، ولعلنا نسير على الطريق الرئيسية».

تحولت معالم الأرض المكسوة بالثلوج إلى اللون الأرجواني الشاحب. كانت الشمس تتأهب للغروب وراء التلال، وذلك يعني أنهما سيعلقان في هذا المكان إن لم يستطيعا الانطلاق بسيارتهما بسرعة أكبر. أصر نك، مع ذلك، على عدم الضغط كثيراً على دواسة الوقود. قرصته أديل في ذراعه وأشارت: «ها هو مجدداً!»

تأكد فعلاً من أنه رأى وميضاً من ضوء إلى اليمين أمامهما. يُحتمل أن يكون ضوء سيارة، ويُحتمل ألا يكون. سيكون بإمكانهما طلب إرشادات لمتابعة طريقهما إن كان ذلك الضوء صادراً عن منزلٍ ما. تذبذب وميض الضوء واختفى للحظةٍ أو نحو ذلك، ثم عاود الظهور على مسافة أبعد قليلاً. لاحظ أن الضوء يتحرك بغض النظر عن طبيعته. كان ذلك أمراً طيباً بالنسبة إليه. بدا له أن التقدم إلى الأمام هو الخيار المنطقي الوحيد في هذا الوقت.

ما إن اقتربا من قمة التلة حتى شاهد بوابةً مفتوحة في الطرف الآخر من الحقل، فتابع قيادة السيارة باتجاه البوابة. تمكنت سيارة أديل الصغيرة من المرور عبر المسافة الضيقة التي تفصل ما بين عمودي البوابة. توضحت أكثر معالم الطريق في هذا المكان، لكن العتمة أخذت ترخي سدولها بسرعةٍ أكبر. خفّف نك أنوار مصابيح السيارة قبل أن يتفحص جهاز الملاحة الموجّه بالأقمار الصناعية، ونقر على زاوية شاشة العرض كي يكرر الجهاز آخر مجموعة من

التعليمات: «تابع السير يساراً بعد أن تقطع ألف قدم».

أصلحت أديل من جلستها إلى جانبه، وقالت: «ماذا يعني ذلك؟ هل نتابع السير قدماً، أم ننعطف يساراً؟»

هزّ كتفيه قبل أن يجيب: «يُحتمل أن تتفرع الطريق أمامنا، لذا يأمرنا الجهاز أن نأخذ الطريق التي تقع إلى جهة اليسار».

تأوهت، ثم استرخت في مقعدها، وراحت تفرك يديها.

- لكن ذلك قد يعني، بالطبع، انعطافاً حاداً في الطريق، وأحيانا تكون التعليمات مربكة.

- ظننت أن الجهاز لا يخطئ.

- لا، يا زوجتي العزيزة. إن الكائن الوحيد الذي لا يخطئ هو أنتِ.

رأى بطرف عينه يدي أديل وهما ترتفعان في الهواء.

- لا أصدق أنك لا تستطيع نسيان هذه المعزوفة. إنني قادرة على الاعتراف بالخطأ مثل أي شخصٍ آخر.

أصدر نك صوت استهجان لأن ذاكرة أديل انتقائية في بعض الأحيان، فمن المؤكد أنها ليست على استعداد كي تعترف بمسؤوليتها في تدمير زواجهما. لا! إن أديل المثالية لن تُقدم على أمرٍ كهذا. شعر بالغضب منها لأنها تصر على وضع ذلك القناع اللامع من حولها.

- إذاً أنت لستِ مثالية؟ هل يعني ذلك أنك على استعداد للاعتراف بأنك لعبتِ دوراً في تدمير زواجنا، أو أن الفضل في ذلك يعود لك وحدك بالفعل؟

ندم فوراً على المرارة التي حملتها كلماته، إذ لم يسبق له أن تحدث معها بهذه الطريقة من قبل. فشلت كل الجهود التي بذلها للتلطيف من لهجته التي جاءت قاسية وعدوانية. اكتفت أديل بالصمت للحظاتٍ قليلة. لم يكن بمقدوره التطلع من حوله كي يلاحظ تعابير وجهها، أصبح الثلج داكناً أكثر حتى تحول لونه إلى الرمادي المائل إلى الزرقة بسبب ضوء النهار الآخذ بالتلاشي، لذا كان من الصعب التمييز ما بين الثلج وبين الأعشاب البرية التي تحدد معالم الطريق.

أطلقت أديل تنهيدة قوية وعميقة: «حسناً! أنا أعترف بذلك. ما زلت

مصرة على أنك فرضتَ عليّ اتخاذ قرارٍ خطير على حين غرة، لكنني لم أساعد في تسوية الأمور عندما . . .».

انتظر قليلاً قبل أن يعلق على كلامها، ويعود ذلك جزئياً إلى شعوره بالصدمة التي منعته من التفكير.

- . . . كان يتعيّن عليّ أن أجيب على مكالماتك الهاتفية بعد مغادرتك البلاد، أو على الأقل كان يجدر بي أن أتصل بك بنفسي. لكنني . . .

لم يكن صبوراً بما فيه الكفاية هذه المرة.

- إنك . . . ماذا؟

بدا صوتها في منتهى الهدوء بحيث اضطر إلى أن يجهد لسماعه.

- لكنني . . . لم أستطع.

أهذا أفضل تفسير يمكنها تقديمه؟ إنه أمر لا يصدّق! أدرك أنه كان يجدر به الشعور بالنصر عند سماعه اعترافها بأنها تقدم على خيارات خاطئة، لكن ذلك لم يعد كافياً. سبق له أن ردّد مراراً أن اليوم الذي تعترف فيه أديل بأنها أخطأت في أي شيء سيكون يوماً بارداً في الجحيم، وسيكون الطقس هناك جيداً على غير عادة. أراد أن يعرف السبب الذي جعلها تستسهل التخلي عن زواجهما وعنه، بينما تمسكت بيدٍ من حديد بكل الأشياء الأخرى في حياتها.

- لماذا لم تستطيعي أديل؟ ما الذي منعك؟

هو يعرف الجواب جيداً: الكبرياء! لكنه أراد أن يسمع الكلمة من فمها لمرة واحدة على الأقل.

سمع صوت شهيقها عندما فتحت فمها لتتكلم، لكن قاطعها صوت معدني يصدر الأوامر: «تابع المسير يساراً».

شعر بدافع قوي كي يكرر ثورة أديل التي حدثت في وقتٍ سابق على ذلك الجهاز اللعين، لكنه فوجئ بأنه يحتاج إلى كل ذرةٍ من انتباهه كي يفهم المشهد الذي يراه أمامه. لم يشاهد أمامه تفرعاً من الطريق. لم يشاهد سوى رقاقات ثلج تدور أمام أنوار مصابيح سيارته وسط خلفية من الهواء والفراغ. أدار عجلة القيادة بقوةٍ نحو اليسار، كما أنه ضغط على دواسة الفرامل حتى وصلت

إلى أرضية السيارة. انعطفت السيارة لكن الجزء الخلفي منها تابع الانزلاق إلى جانب الطريق. أطلقت أديل صرخة قصيرة وحادة، ثم استندت على لوحة العدادات. تذكر نك بصورة عفوية أن يغير اتجاه الإطارات لجهة الانزلاق، فتمكنت السيارة من التوقف. فتح الباب وقفز من السيارة، لكنه تراجع على الفور، إذ وجد نفسه محشوراً أمام باب السيارة الخلفي المقفل. لم يكترث برقاقات الثلج المتجمدة التي علقت بوجهه وشعره، لأن كل ما استطاع رؤيته كان ذلك المنحدر الصغير الذي لا تبعد عنه السيارة سوى أقدام قليلة. لم يستطع إلا أن يتخيل سوى منظر سيارة محطمة في أسفل ذلك المنحدر.

- نك!

جاء صوت أديل خافتاً. سمعه على أية حال، لكنه بالكاد استطاع تمييزه.

رمش بعينيه وتطلع إلى أسفل المنحدر الصغير مجدداً. لم يزد المنحدر عن العشرة أقدام أو نحو ذلك، لكنه يكفي لإحداث ما يكفي من الضرر للسيارة وركابها على السواء. حدّقت فيه نعجة كأنها تتساءل عن كيفية وصول أي شخص إلى هذه الدرجة من الغباء. طرح نك السؤال ذاته على نفسه. عاد ببطء إلى السيارة، وحشر نفسه في مقعده بعد أن دفع بذراعيه مستنداً على عجلة القيادة. لو أنه تمكن من السيطرة على عواطفه واستبعدها كلياً، كما اعتاد أن يفعل دوماً لما فقد تركيزه.

اجتاحه شعور بارد اخترق عظامه؛ إنه الخوف! لم يكن الشيء الذي تخيله سيارةً منزلقة ومتضررة في أسفل المنحدر، لكنه تخيّل أديل مصابة فيها، ومن غيره سيتحمل المسؤولية عن هذا الحادث؟ تحول لومه السابق لها بشأن من هو على صواب ومن هو على خطأ إلى تفاهات لا معنى لها، فهناك الآن أمور أهم بكثير.

بدا صوتها كأنه قادم من البعيد: «نك . . . هل أنت بخير؟»

فتح عينيه ببطء والتفت نحوها قبل أن يرد عليها: «كنا قريبين جداً».

فتحت عينيها، لكنه لاحظ الشحوب في وجهها: «أعرف، لكننا بخير الآن. دعنا نخرج من هنا ونعود إلى الطريق الرئيسية . . . أي طريق رئيسية

كانت. لم أعد أكترث الآن بما يقوله جهازك هذا».

أدار محرك السيارة من جديد، وتفحص الطريق جيداً قبل أن يبتعد عن المكان. انعطفت الطريق بحدة نحو جهة اليسار بزاويةٍ قدرها تسعون درجة تقريباً، لكنها سلكت سفح تلة شديدة الانحدار. قاد نك السيارة ببطءٍ شديد، لكن الإطارات انزلقت قليلاً بالرغم من ذلك بسبب الجليد الكامن تحت طبقة الثلج المتساقط حديثاً. حافظ نك على سيطرته على السيارة، واستطاع إيقافها في أسفل التلة في الوقت المناسب.

شاهد بوابةً أخرى لكنها كانت مغلقةً هذه المرة. أومأت أديل، وبدا أنها تفكّر بالأمر ذاته، وما لبثت أن ترجلت من السيارة، فتبعها نك بعد لحظات قليلة.

- لا فائدة يا نك. هناك سلسلة ملتفة على المزلاج. كما أنها محكمة الإقفال، لذلك لن نستطيع المرور عبرها.

هزّ نك السلسلة التي علاها الصدأ، لكنها كانت قوية. كان القفل جديداً ولامعاً، لذلك لم يكن هناك من أملٍ في تحريكه أبداً. أفلتت شتيمة منه قبل أن يعود إلى السيارة. أمسك بجهاز الملاحة من أجل الحصول على خريطة مكبرةٍ للمنطقة. كان ذلك الجهاز الأحمق على حق؛ لو استطاعا السير قدماً لمسافة ميلٍ أو ميلين لاستطاعا العودة إلى الطريق الرئيسية، واقتربا أكثر من الطريق السريعة. إنها أنباءٌ طيبة لكنها تفتقد إلى المعلومات الضرورية، وهو الأمر الذي يماثل حالته قليلاً في واقع الأمر. الأمل الوحيد الذي بقي أمامهما هو تعقب آثار سيرهما، والعودة إلى حيث كانا من قبل.

لاحظ نك أن أديل عادت إلى السيارة مجدداً، كما أنها راحت تنفض الثلج الناعم عن قفازيها. آه لو أن علاقتهما بمثل هذه السهولة! تمنى لو أنه يستطيع العودة بالزمن إلى الوراء، لكن الأمور لا تسير على هذا النحو. يمضي الزمن ويجد المرء نفسه في نقطة تتعدى الطريق التي اختارها، مهما كان الاتجاه الذي اختاره عندما بدأ المسير. نظرت أديل نحوه، واستغرب أن يخلو وجهها من أيّ تعابير: «ماذا الآن؟»

- يتعيّن علينا أن نعود من حيث أتينا، ثم نتجه إلى إنفرغارنغ. سنتأخر عن موعد العشاء، لكننا سوف نتمكن من الوصول قبل منتصف الليل.

- أتريدني أن أتصل بوالدتك لأخبرها أننا سوف نتأخر في الوصول؟

ابتسم نك ابتسامة متكلفة، وقال: «سيكون ذلك رائعاً».

فكّر في أن طبيعة أديل المنظمة تعني بأنها تهتم دوماً بالتفاصيل الصغيرة كهذه. ستقلق والدته إذا لم يصلا في الموعد المحدد، وهو لا يرغب في التسبب بقلقٍ إضافي لها. استدار في مكانه بينما تناولت أديل هاتفها، ونزعت قفازيها، ثم ضغطت على بضعة أزرار قبل أن ترفع الهاتف إلى مستوى أذنها. مرت ثوانٍ قليلة قبل أن تُبعده عنها كي تحدّق بالشاشة.

- لا يوجد إرسال هنا.

تطلع نك إلى أعلى التلة الموجودة أمامه.

- لا بد أن السبب هو وجودنا في مكانٍ منخفض، ولا شك في أن تغطية الهاتف المحمول ضعيفة في هذه المنطقة في معظم الأوقات. حاولي مرة أخرى عندما نصل إلى أعلى التلة.

أومأت قبل أن تضع يديها في حضنها، بينما أبقت هاتفها بينهما. شغّل نك محرك السيارة، وبدأ في توجيهها نحو أعلى التلة. سارت الأمور على ما يرام لمسافة قصيرة لأن درجة الانحدار كانت قليلة، لكن ما إن حاولا السير قدماً حتى تآمرت الجاذبية مع الجليد بهدف إرجاعهما إلى أسفل المنحدر. بدا كأن السيارة الصغيرة قد علقت في لعبة السلم والحية، فما إن تكاد تصل إلى قمة التلة مرة بعد أخرى حتى تعود منحدرةً إلى المكان الذي انطلقت منه. التفت نك إلى أديل بعد المحاولة الخامسة وقال: «لا أعتقد أن أديل التي تعودت على أعلى درجات التنظيم تحتفظ بسلاسل مخصصة للسير على الثلج في صندوق سيارتها، أم أنني مخطئ؟»

نظرت أديل نحوه مستغربة: «إننا نعيش في لندن نك. منذ متى نحتاج إلى السلاسل المعدنية؟»

- كنت أسأل فقط. يبدو أنك تمتلكين قدرة سحرية على إخراج كل

الأدوات التي تحتاجينها من حقيبتك، سواء كانت ملاقط أو شريط لاصق أو عدة إسعافاتٍ أولية صغيرة. كنت أتساءل عما إذا كان السحر ذاته ينطبق على سيارتك. هذا كل شيء.

- لن تفيدك السخرية مني بشيء.

ضغط مجدداً بقدمه على دواسة الوقود، لكنه انزعج لأنها تضايقت من محاولته ترطيب الأجواء بينهما. لماذا فعلت ذلك؟ لماذا يضايقها كل شيء يتفوه به؟

بدأت السيارة بالانزلاق مرة أخرى، فداس بقوةٍ كبيرة على الفرامل من فرط توتره. لم يتمكن نك من إيقافها بالرغم من استعادته بعض السيطرة عليها، ولم يستطع منع اصطدام الجزء الخلفي منها بأحد أعمدة البوابة.

- نك!

- إنني أقوم بكل ما في وسعي يا أديل.

حدّقت فيه قليلاً قبل نزولها من السيارة كي تتفحص الأضرار التي أصيبت بها. شعر بأن جهوده لم تؤتِ ثمارها هذه المرة أيضاً. ترجّل من السيارة وانضم إليها. لم تزد الأضرار عن انبعاجٍ صغير في الباب الخلفي للسيارة ودفاعها. أثّرت هذه الأضرار مع ذلك على منظر السيارة التي أصبحت بحاجةٍ إلى إصلاح. رفعت أديل ذراعاً متصلبة، ثم حركت أصابعها: «أعطِني هاتفك».

أدرك أنه من غير المناسب أن يطلب منها أن تسبق طلبها هذا بعبارة «من فضلك» بعد أن ألحق هذه الأضرار بسيارتها. نقرت أديل رقماً وانتظرت، ثم رفعت إبهامها لكن من دون أن تبتسم. استنتج من حركتها هذه أن تغطية شبكته الهاتفية هي أفضل في هذه المنطقة، وأنها تلقت إشارة متقطعة في آخر الأمر.

- مرحباً! أحتاج إلى شاحنة قطر أو ما شابه، لأننا نحتاج إلى المساعدة...

قرّبت حاجبيها وزمّت شفتيها: «مرحباً...!»

اخترقه شعورٌ محبط حتى أخمص قدميه المتجمدتين. أراد الليلة الماضية أن يشحن بطارية هاتفه في شقة كريغ، لكنه لم يجد مقبساً خالياً فيها، لأن كاي كانت تصفف شعرها، ثم انشغل الجميع بعد ذلك في التحدث وتبادل

الأخبار...

دفعت أديل بالهاتف إلى يده قبل أن تلقي بنفسها في مقعدها. بدأ هاتفه الأنيق الذي اشتراه حديثاً في إصدار أصوات متقطعة وحادة، ثم ما لبث أن استسلم لنوبة طويلة من الصمت. عاد نك إلى السيارة، وشعر بالارتياح لأنه ابتعد عن الثلج الذي أخذت سماكته بالازدياد. أدرك أنه ما من حاجة لتشغيل جهاز التدفئة في السيارة، لأن غضب أديل بدا كافياً لتسخين الأجواء.

- هذا نك النموذجي!

جاءت كلماتها جافة، لكنه أدرك أن الحمم تكاد تخرج عن السيطرة تحت سطح هدوئها.

- اهدئي الآن. ليس باستطاعتك أن تلقي بمسؤولية الأحوال الجوية على عاتقي.

ابتسم ابتسامة عريضة، وتمنى لو أنها تفهم ما يقصده تماماً. ما دام قد وقع في مأزقٍ كبير، فإن الطريقة التي يتبعها كي يُنقذ نفسه لم تعد هامة.

- أعرف أنني ذكي، لكن ليس إلى هذه الدرجة.

- لم يكن أمامنا إلا أن نقوم برحلةٍ بسيطة من لندن إلى سكوتلندة، لكنك أصريتَ على تعقيد الأمور بانعطافاتك وجهاز ملاحتك الغبي.

- لا تنسي أن ذلك الجهاز الغبي أنقذنا من التدهور من فوق الصخور.

- لم نكن مضطرين إلى الاقتراب منها لو أننا التزمنا بالطريق الرئيسية.

- اهدئي الآن! تذكرت أن شخصاً ما أمرني بالصمت والاكتفاء بتنفيذ التعليمات.

- كما قلتَ أنت، استخدمت ذلك الشيء الذي لا يهمه سوى إعادتنا إلى الطريق الرئيسية. كيف لي أن أعرف أنه سيقودنا إلى ما يشبه مطاردة الأوز البري.

- ما...ء، ما...ء.

قفز نك وأديل من مقعديهما كي يحدّقا بالنعجة التي كانت تنظر نحوهما بهدوء قرب السيارة. نظرا إلى بعضهما بعضاً ثم عادا كي ينظرا نحو النعجة.

رفعت النعجة رأسها قبل أن تندفع من خلال ثغرة ضيقة ما بين عمود البوابة والجدار الحجري. بدا ذلك عرضاً رائعاً.

- أعتقد أن من الأنسب القول مطاردة النعاج البريّة.

فرك نك وجهه بيديه. أدرك عندما تطلع نحو أديل أنها تطبق شفتيها بإحكام في محاولة منها لمنع نفسها من الضحك.

- بربك! أنت رجل مستحيل نك هيوز.

- أعرف ذلك، لأنني صنعت لنفسي شارة كُتب عليها «أنا رجل مستحيل».

تحركت جهة من جهتي فم أديل.

- أنت لا تحتاج إلى شارة تدل على ما هو معلوم للجميع، وأنت تعرف ذلك.

بادلها نك الابتسام، ولم يكن بحاجة لأن يرسل نحوها أي إشارات هذه المرة. اكتفى بتكشيرة مفادها: أنا مسرورٌ لأن زوجتي نسيت أنني عدوها!

- أعتقد أنها ليست غلطتك. أقصد أنك لم تعلم أن الطريق سوف تقودنا إلى مزرعة لتربية الحيوانات، بدلاً من أن تكون طريقاً ريفية. أليس كذلك؟

التزم نك بالصمت التام، فيما ركّزت أديل نظرها عليه.

- لم يكن بوسعك أن تعلم. أليس كذلك؟

أجفل نك في مقعده، فيما استرخت أديل في مقعدها وغطت وجهها بيديها.

- في كل مرة أقنع نفسي فيها بأنني أستطيع الاعتماد عليك تعمد إلى تذكيري بأنني أخدع نفسي. إذا كنت لا أستطيع الاعتماد عليك في الأمور الصغيرة، فكيف أعتمد عليك في الأمور المهمة حقاً؟

جلسا بصمتٍ لمدة خمس دقائق إضافية. أدرك نك أنه استغرق بعمق بالتأمل في الساعة الموجودة في لوحة العدادات، والتي راحت تدق دقاتٍ رتيبة وسط الصمت المخيّم. ذكّرته هذه الدقات بالصوت الذي تحدثه قنبلة موقوتة على وشك الانفجار.

- أعطني هاتفك من فضلك.

- تذكّر أنه لا وجود للإرسال هنا.

- أعرف ذلك، لكنني أستطيع الصعود إلى أعلى التلة لالتقاط الإرسال من هناك.

- لا تكن أحمق، فالظلمة الكاملة تكاد تُطبق على المكان.

مدّ يده قائلاً: «هذا بالضبط ما يدفعني إلى التحرك بسرعة قبل فوات الأوان. أنت لا ترغبين بالطبع أن تعلقي هنا طيلة الليل. أليس كذلك؟ إذا ظننتِ أن الطقس بارد الآن، فأنصحك أن تنتظري حتى الثالثة صباحاً».

ناولته الهاتف، وشبكت يديها فوق صدرها ثم قالت وهي تحدق بالأرض: «انتبه لنفسك!»

راقبت أديل نك من خلال نافذة السيارة وهو يشق طريقه نحو المنحدر المكسو بالثلج. بعدئذٍ أعادت انتباهها إلى الأجهزة التي تضبط الحرارة في السيارة. تمكنت من رؤية أنفاسها وهي تتصاعد على شكل غيوم، بالرغم من أن جهاز التدفئة كان يعمل بأقصى قوته، كما استطاعت أن تشعر بمقدمة أنفها المخدرة من فرط البرد. راحت ترتجف، وشعرت أنها بحاجة إلى ملابس أكثر سماكة، وهي تعرف جيداً أين تجدها. ترجلت من السيارة، فشعرت أن ساقيها متصلبتان بسبب البرد وبسبب التواجد في حيزٍ صغير لساعات طويلة. لكنها عدلت عن رغبتها في ارتداء ملابس إضافية عندما وصلت إلى الصندوق. لم تكن الضربة التي تلقتها السيارة مجرد انبعاج صغير، بل إن الباب بات مغلقاً بإحكام، بحيث لم تنفع كل محاولات الشد في فتحه. حاولت مراراً أن تفتحه من غير جدوى. حاولت أن تصرخ، لكن ذلك لم يجدها نفعاً، بالرغم من أنها شعرت بارتياحٍ كبير. قررت أن تحاول مرة أخرى بعنايةٍ أكبر بعد أن نفست عن غضبها. لكن ما إن ضغطت على القفل حتى ظنت أنها سمعت صوت المزلاج فشعرت بالبهجة. مدّت أصابعها نحو الكوة المحيطة بالزر، ثم شدت بكل ما أوتيت من قوة... صرخت من جديد، لكنها فعلت ذلك بسبب الخوف هذه المرة، لأنها هوت إلى الخلف قبل أن تصطدم بالثلج البارد. انتشرت الرطوبة

الجليدية بسرعةٍ مدهشة في القسم الخلفي من ساقيها، وما لبثت أن تصاعدت نحو ظهرها بسبب انحسار معطفها عنه. تعثرت قليلاً في الثلج الذي تكوّم قرب البوابة، واستمرت في تعثرها لبضع ثوانٍ قبل أن تتمكن من حمل نفسها على الوقوف. بحثت في الأفق عن نك أثناء محاولتها الدخول مجدداً إلى السيارة، إلا أنها لم تعثر له على أثر في أي مكان. يُحتمل أنه في أعلى التلة في مكان لا تستطيع أن تراه فيه. فجأة شعرت أنها وحيدة. مدت يدها وشغلت الراديو كي تخفّف من وحدتها. لم يكن الاستقبال الإذاعي جيداً، لكنها شعرت بارتياحٍ لأنها سمعت صوتاً بشرياً.

مرّت عشر دقائق تطور خلالها شعور الوحدة والعزلة إلى شعورٍ بالقلق أيضاً. كان يتعيّن على نك أن يعود في هذا الوقت. ماذا لو زلّت قدمه فوق تلك الصخرة؟ يُحتمل أن يكون مستلقياً هناك بعد أن كسرت رجله وأحاطت الخراف به، وهو يعجز عن طلب النجدة بسبب البرد الشديد. أدركت أنها غير قادرة على طلب النجدة من أي نوعٍ كانت. كانت الظلمة تطبق بسرعة على المكان، كما أنه لا يمكن لأي شخص أن يعثر عليهما في هذه المنطقة. آه! لو أضاءت مصابيح السيارة فإن شخصاً ما قد يراها. دفعت بنفسها إلى مقعدها، ثم أضاءت المصابيح. كانت مصابيح السيارة نصف مضاءة على أية حال، لكنها حولتها إلى كامل طاقتها. خطرت فكرة أخرى ببالها. يُحتمل أن يبدو الضوء الثابت كأنه صادر عن نافذة منزلٍ ما، لكن الأنوار الوامضة ستنجح في جذب الانتباه على وجه التأكيد. بدأت في إضاءة المصابيح وإطفائها في فتراتٍ منتظمة، وبعد أن كررت ذلك عشرين مرة أو نحو ذلك، خطرت على ذهنها خطوتها التالية: شيفرة مورس. تذكرت رمز طلب الاستغاثة وهو عبارة عن ثلاث شرطات قصيرة وثلاث شرطات طويلة، تليها ثلاث شرطات قصيرة. أبقت أنوار السيارة على هذا الوضع لدقائق إضافية آملة أن يرى أحدهم تلك الإشارات، ثم أعطت نفسها فترة من الراحة. غابت الشمس في هذا الوقت، وبدأت رقاقات الثلج المستديرة تتساقط بأحجام أكبر. خيّمت صبغة من اللون الأزرق الجليدي على الأفق، وما لبثت الظلمةُ الحالكة أن حلت مكانها بعد

وقتٍ قليل. لعل نك لن يتمكن من العودة أبداً!

عادت إلى إضاءة مصابيح السيارة وإطفائها مجدداً، لكنها فعلت ذلك بشكلٍ عشوائي هذه المرة، وكأنها ترغب في إرشاده إلى السيارة. يتعيّن على نك أن يعود. لا يمكنه أن يتركها وحدها مرة أخرى. على الأقل ليس بهذه الطريقة. يُضاف إلى ذلك أنها لا تستطيع أن تتحمل فكرة وجوده بارداً، ورطباً ومصاباً وسط الظلمة الحالكة. صحيح أنه يسبب لها الاحباط أحياناً، لكن هناك فرق كبير بين رغبتها في إخراجه من حياتها، وبين القضاء على حياته. أدركت أنها قادرة على تحمل الانفصال عنه فيما لو علمت أنه موجود في مكانٍ ما من الكرة الأرضية، ويمارس الأمور التي يحبها، لكن ماذا يحصل إذا ما رحل عن هذه الدنيا إلى الأبد؟

بدأ قلبها ينتفض في صدرها، وبدأت أنفاسها بالخروج على شكل سحاباتٍ تكاثفت على الزجاج الأمامي، لكنها كادت تخترق سقف السيارة عندما سمعت طرقات يدٍ على زجاج نافذتها.

٨- معاً رغماً عنهما

- إذا اقترحتَ أن نتعانق كي نحافظ على حرارة جسدينا، فلن أتردد في صفعك.

الوميض الذي ظهر في عينَي نك بدا كافياً، لكنها أرادت أن تصفعه على أية حال. أرادت أيضاً - ولغرابة الأمر - أن يتعانقا. لا بد أن درجات التجمد تؤثر على التفكير المنطقي أحياناً.

- إنني جدية يا نك.

- أعرف أنك جدية.

مع ذلك زاد الوميض في عينيه.

- ماالذي جعلك مبتلة وأنت جالسة داخل السيارة، بحق الله يا أديل؟

حولت أديل بصرها عنه: «كنت أحاول الحصول على بعض الدفء».

- وهل تحصلين على الدفء عن طريق الاستلقاء على الثلج؟

- لا، بل عن طريق الحصول على بعض الملابس الإضافية من صندوق السيارة. لكن الباب عالق، لذلك وقعت على الثلج أثناء محاولتي فتحه.

نظر نك نحو المنطقة الخلفية من السيارة، ثم اندفع من خلال الفراغ الموجود بين المقعدين الأماميين إلى المقعد الخلفي.

رفع الغطاء ووصل إلى الصندوق: «ألم تفكري في تجربة هذه الطريقة؟»

- آه... لا.

اختفى القسم الأكبر من ذراعه وهو يفتش في الصندوق. تناول بطانية السفر وعدة الإسعافات الأولية التي تحتفظ بها في الصندوق. تناول بعد ذلك حقيبته، لكنه تابع الانشغال بشيء مجهول في تلك المنطقة المظلمة من السيارة.

- إنني لا أستطيع تحريكها.

- أتعني حقيبتي؟

سحب ذراعه، ثم استرخى في مقعده وهو يلهث: «لا بد أنك عانيتِ الأمرين في إدخال هذه الحقيبة الكبيرة في ذلك الحيّز الضيّق، ويبدو أن الانبعاج حشرها كثيراً فلم أستطع فتحها».

غمزها قبل أن يُكمل: «وأنت تعرفين ماذا يعني ذلك. إذا لم تنزعي الملابس المبللة عنك فإن انخفاض درجة الحرارة سيشكل تهديداً أكبر لك».

- أحقاً؟

- الملبوسات المصنوعة من الجينز هي أسوأ ما يرتديه المرء في طقس كهذا. إنها تمتص الماء وتستغرق وقتاً أكبر كي تجف. الحفاظ على جفاف الملابس هو الأمر المهم الرابع في هذا الطقس البارد.

- عذراً؟

- إن أهم أربعة أشياء بالنسبة إلى المتسلقين هي: ابقَ نظيفاً؛ تجنّب الإفراط في التدفئة؛ ارتدِ عدة طبقات من الملابس؛ حافظ على جفاف ملابسك.

- هل تعلمت هذه الأمور من تسلقك الجبال؟

- بالطبع! لا أظنك تعتقدين أنني أتعلق في أعالي الجبال بأطراف أصابعي من دون أن أتخذ الإجراءات اللازمة لسلامتي.

لكنها في الحقيقة تعتقد ذلك! لم يتحدث نك يوماً عن تعليمات السلامة أو عن الأمور الأربعة المهمة أو عن أي شيء يشبه ذلك.

اقترب منها وبدأ بتمسيد ذراعها، فذابت كل مشاعر الكبرياء بينهما.

- يتعيّن عليك أن تخلعي سروال الجينز هذا وكل شيء مبللٍ آخر.

افتر فمها عن ابتسامة عريضة: «ليس من اللائق أن تراني وأنا مرتدية ملابسي الداخلية».

بادلها نك ابتسامتها قائلاً: «اسمعي! أستطيع أن أتحمل الأمر، لأنني بعد سنوات أربع من الزواج أصبحت أعرف أماكن تواجد هذه الأشياء الصغيرة في الدرج المخصص للملابس الداخلية. رأيت تلك السراويل الرمادية الكبيرة التي

كنتِ ترتدينها في النادي. أتذكرين؟»

قالت: «لم تكن رمادية اللون، بل من اللون الأزرق الشاحب».

- أحضرت معي ملابس نظيفة. تستطيعين استعارة سروال جينز وقميصاً وكنزة.

- هل أحضرت سروالاً داخلياً معك؟ وصل البلل إلى... ثيابي كلها.

أغمض عينيه للحظة، ولاحظت أديل توتراً في كتفيه وهو يقول: «هل تحاولين أن تبعثي فيّ الدفء والقلق؟»

هزّت رأسها لكنها تساءلت، ما خطبها؟ لا شك أن هذا هو أسوأ وقتٍ لتبادل الغزل مع الرجل الذي سوف يصبح زوجها السابق عما قريب.

راح يفتش في حقيبته، ثم دفع الثياب باتجاهها قبل أن يُكمل: «اعتدت على رؤيتك مرتدية ثيابي من قبل. أتذكرين؟»

حاولت أديل ألا تبتسم، لكنها لم تستطع. تذكرت عندما كانت تسرق ثيابه فيقسم أن يسترجعها مهما كلفه الأمر. حدثت مطاردات وقهقهات كثيرة في تلك الأوقات، انتهت كلها بالكثير من العناقات واللحظات الحميمة. فوجئت عندما اكتشفت أنها اشتاقت إلى ذلك الجزء من علاقتهما أكثر مما توقعت. تذكرت أنها لم تضحك كثيراً في الأشهر التسعة الأخيرة، إلى أن شق نك طريقه إلى حياتها مجدداً. تذكرت أيضاً أنها صرخت واغتاظت، وأرادت أن تضرب رأسها بالحائط أكثر من مرة في الأيام الستة الأخيرة، لكن هذه الأمور لا تساوي عندها البهجة الخالصة التي تنتج عن المزاح معه.

- عليك أن تزحفي إلى الخلف كي تبدلي ملابسك.

تطلعت أديل نحو الحيّز الصغير الذي يحيط بها، وقالت: «حسناً! أريدكَ أن تعود إلى المقعد الأمامي، وأن تنظر أمامك مباشرة».

- سأنفذ أي شيء تقولينه سيدتي.

زحفت أديل من خلال الفسحة التي تفصل ما بين المقعدين الأماميين، وانتهت -بطريقةٍ ما- ممددة في أحضان نك.

- حسناً! ألستِ مرتاحةً هنا؟

- انتقِل إلى المقعد الأمامي الآن!

ناور نك بحيث تمكنت أديل من الجلوس على المقعد، لكنه انحنى فوقها. بذلت كل ما في وسعها كي تتجاهل تلك الأحاسيس المجنونة التي سرت عبر جسدها. لكن وجوده قريباً منها إلى هذه الدرجة وملامسته لها كانا أعلى من درجة تحملها. إن مجرد تواجد ذلك الرجل الفوضوي الرائع بقربها كفيل برفع درجة حرارة جسدها بصورة ملحوظة. تلاقى وجهاهما للحظة عندما سحب نك ساقيه من خلال المساحة الموجودة ما بين المقعدين الأماميين، فأمسكت أديل أنفاسها. توقف نك عن الحراك، ثم ركّز نظراته على عينيها. تلاشى ذلك الوميض منهما ليحل مكانه اشتياقٌ هادئ... بل شيء أكثر خطورة. لم يكتف بالنظر إلى شعرها المبلل وملابسها التي تنضح بالماء، بل راح يحدق إلى المرأة القابعة تحت هذه الأشياء، وأدركت أنه يتوق إلى الشخص الكامن في أعماقها.

ابتعد نك على نحوٍ مفاجئ، متسلّلاً من المساحة الفاصلة بين المقعدين الأماميين. حرك المرآة بإصبعه إلى أن واجهت أرضية السيارة، وهو تصرف ينضح بشهامة النبلاء. إنه التصرف الذي أرادته أن يقوم به في الماضي، أما الآن فإن الإحباط هو ما شعرت به أثناء جلوسها وحيدة في المقعد الخلفي. أراده جزء منها أن يستمر في المغامرة، فذلك ما كان ليفعله قبل هذا الانفصال الكامل بينهما. اعتادت في السابق أن توبخه على تصرفاتٍ كهذه، لكنها أحبت واقع أنه لا يستطيع التحمل. تغيّرت الأمور الآن، لكنها أدركت فجأة أنها لا تحب أن يتصرف نك بحسب التوجيهات المعطاة إليه.

سألها وهو مستمر في التطلع أمامه مباشرة: «ما معنى إضاءتك وإطفاؤك لمصابيح السيارة بينما كنت أقف على قمة التلة محاولاً الحصول على إشارة هاتفية؟»

أسرعت بارتداء الملابس الجافة، ثم شقت طريقها إلى المقعد الأمامي للسيارة كي تشرح له. كررت أمامه حركة الإضاءات الطويلة والقصيرة التي تؤلف رسالة الاستغاثة.

- إنها فكرة حمقاء في الواقع. ظننت أنني إذا أضأت المصابيح بهذه الطريقة،

فإنني قد أجذب انتباه شخص ما إلينا.

- لم أكن على علم بأنك تعرفين رموز شيفرة مورس.

التفتت نحوه كي تتفحص وجهه: «لم أكن على علمٍ بأنك تعرفها أنت أيضاً».

بقيا على تحديقهما في بعضهما البعض، بينما ارتسمت نصف ابتسامة على شفاههما. أطفأ نك جهاز الراديو، ومضى كي يطفئ جهاز التدفئة.

- لا تفعل ذلك! إن الطقس باردٌ بما فيه الكفاية هنا.

- أديل! إننا مضطران لذلك. أبقينا النور مضاءً داخل السيارة، واستخدمتِ طاقة البطارية لإضاءة المصابيح الأمامية، كما أن جهاز الراديو كان يعمل... إذا لم نوفر في طاقة البطارية فلن يتبقى شيء منها أبداً.

- آه! لم أفكر في هذا.

بالطبع! لم تفكر في أمورٍ كهذه لأنها انشغلت بالقلق على زوجها.

- هناك احتمال كبير أن نضطر للبقاء في هذا المكان طيلة الليل، لذلك يتوجب علينا أن نوفر طاقة البطارية. أقترح أن نشغل المحرك وجهاز التدفئة خمس دقائق كل نصف ساعة، وهكذا نستطيع منع انخفاض درجة الحرارة أكثر. عندما ينبلج الصباح يمكننا أن نفتش عن بيت ريفي أو أي شيء آخر، وسنحاول استخدام الهاتف أو الحصول على قاطرة كي نجتاز تلك التلة.

يا لها من أفكارٍ جيدة إلى حدٍ يثير القلق!

- لكنني أشعر بالبرد الشديد منذ الآن.

وجّه نحوها نظرةً مليئة بالسخرية قبل أن يقول: «كنت على حق عندما اقترحتِ أن نتعانق طلباً للدفء. لمَ لا نجلس في المقعد الخلفي ونقوم بتغطية نفسينا بالبطانية، ونرى إن كان بإمكاننا تدفئة بعضنا البعض؟»

تحولت ابتسامة نك الخجولة إلى ابتسامة عريضة قبل أن يكمل: «أعدك بأن أبقي على ثيابي إذا فعلتِ الأمر ذاته».

مالت برأسها جانباً ثم بادلته ابتسامته: «أعدك».

- اتفقنا إذاً.

تحركت أديل فوق المقعد عائدة إلى الوراء من جديد. حشرت نفسها بمحاذاة الباب لتعطي نك فسحةً كافية كي يعود إلى المقعد الخلفي مجدداً، لكنه خرج من الباب الأمامي كي يعود إلى السيارة من خلال الباب الخلفي للجهة ذاتها. سألته: «لماذا لم نفعل ذلك من قبل بدلاً من الزحف فوق هذه المقاعد؟»

- آه، حسناً! هناك سبب هام جداً لذلك.

قال نك ذلك بينما راح يربت على المقعد المجاور، ثم أمسك بالبطانية بحيث تغطيهما معاً. تحركت أديل بمحاذاته كي تصبح تحت ذراعه، لكنها تأكدت من ابتعادها عنه قليلاً كي تضمن سلامتها الشخصية وطمأنينتها.

- أما ذلك السبب فهو...؟

طبع قبلةً على الجزء الأعلى من شعرها.

- كان ذلك أسهل بكثير... لولا أنها طريقة تخلو من المرح.

هزّت أديل رأسها، وشعرت بالسرور لأنه لا يستطيع أن يشاهد الابتسامة الشقية التي زحفت على وجهها.

- أنت...!

- مستحيل. أعرف ذلك.

بدا تنفس نك عميقاً ومنتظماً. استلقت أديل بمحاذاة صدره، وشعرت به يعلو ويهبط. بقيا على هذه الحال لمدة ساعتين تقريباً. خيّمت عليهما ظلمة حالكة بعد أن تلاشى وهج الشفق. النور الوحيد حولهما كان صادراً من مصباحٍ صغير تحتفظ به في السيارة للحالات الطارئة. شعرت ببرودة شديدة في أصابع يديها ورجليها، بالرغم من الحرارة المقبولة التي شعرت بها في بقية أنحاء جسمها. راحت تنفخ في راحتي يديها كي تبعث الدفء فيهما من دون أن تتخلى عن المصباح، لكن ما إن تبخرت أنفاسها الرطبة حتى عادت أطراف أصابعها إلى حالة البرودة التي كانت عليها قبل ثوانٍ قليلة. حاولت ألا تستسلم، لكنها شعرت بحالة قوية من الخوف تسيطر على أعماقها. إنهما على بعد أميالٍ من أي مكانٍ مأهول، بينما الثلج مستمر في تساقطه بكثافة بحيث غطى زجاج السيارة الأمامي بالكامل. لم تمر أديل بحالة برودةٍ قارسة كهذه من قبل. سرت قشعريرة

في أنحاء جسدها، لذلك اقتربت أكثر من الجسد الدافئ القريب منها.

- هل أنتِ بخير؟

استدارت كي تواجهه وتقول: «ظننت أنك استسلمتَ للنوم».

طوقها بذراعيه بشدة أكبر: «لا! كنت فقط أحافظ على طاقتي».

- أنا خائفة يا نك.

لم يقل نك كلمة واحدة، لكن أديل أدركت أن الوضع خطير.

- إننا في ورطةٍ كبيرة. أليس كذلك؟

- يمكن أن نكون في ورطةٍ فعلاً، لكن ذلك يعتمد على أمورٍ متعددة، مثل الفترة المتبقية قبل نفاد الوقود، والطاقة الباقية في بطارية السيارة، وكم نبعد عن الطريق الرئيسية، أو عن أي بيتٍ ريفي.

انتشرت دائرة الخوف من بطنها حتى ذراعيها وساقيها. تمسكت بعد ذلك بوميض فكرة خطرت على بالها: «لكننا رأينا ضوءاً، أليس كذلك؟»

راح يمسّد ذراعها بحركاتٍ طويلة وإيقاعية: «رأيناه فعلاً».

لكنها فهمت من صوته بأن ما قاله لا معنى له. فجأةً، لم تعد تقوى على الجلوس هكذا منتظرةً الوقت الذي يتمكن فيه البرد القارس من تخديرها إلى درجة اللاعودة. قفزت من مكانها، وشقت طريقها ما بين المقعدين الأماميين، ثم حركت مقبض الأنوار بعصبية. سقط المصباح من يدها إلى الأرض.

- أديل!

حاول أن يسحبها إلى الخلف، لكنها أبعدت ذراعيه عنها.

- علينا أن نحاول شيئاً نك! لا يمكننا أن نكتفي بالجلوس هنا والاستسلام. يتعيّن علينا أن نأخذ زمام المبادرة، وأن نفعل شيئاً ما.

- أعرف.

تركها، لكنها ما لبثت أن شعرت بهبةٍ من الهواء البارد عندما فتحت الباب المحاذي لها. أطبقت يدٌ صارمة على يدها، بسرعةٍ منعتها من الحركة. أغلق نك الباب بسرعة وأوقف حركة وميض المصابيح المتسارعة.

- توقفي يا أديل. إننا نسيطر على الأمور فعلاً. نحن نحافظ على الوقود

وعلى طاقة البطارية، ونحافظ على نفسينا بالدفء والجفاف. لا يمكننا فعل أي شيء آخر، وكل ما يتعيّن علينا فعله هو الجلوس بسكون.

توقفت عن مقاومة يديه ونظرت نحوه. بدا لها قوياً جداً، وصلباً، وواثقاً من نفسه. أدركت أن تلك الحرارة التي حافظا عليها هربت الآن من خلال الباب عندما فتحته، وأن الهواء أصبح أكثر برودة. دفعت نفسها بالقرب منه، ثم لفت البطانية حول جسدها.

- أنا... أنا آسفة. لا أعرف ما...

زحف نك إلى جانبها، وتناول المصباح من تحت المقعد ثم جذبها نحوه. كان خدّه متجمداً كالثلج عندما لامس خدها، وعانقها...

- خرّبتُ لتوي كل ما حاولنا إنقاذه خلال الساعات القليلة الماضية. أليس كذلك؟ أفرغت طاقة البطارية، وأدخلتُ الهواء البارد إلى السيارة، ثم... انظر ما حدث لك.

تقدمت منه ونزعت الثلج الذي علق بشعره: «أنا آسفة. لم أكن أعرف ماذا أفعل».

احتضنها بشدة أكبر قائلاً: «لا تهتمي. لكن يتعيّن عليك أن تصغي لما أقوله».

أومأت برأسها.

- يتوجب على المرء أحياناً أن يتقبل عدم سيطرته على الأمور. تحدث الكوارث بغض النظر عن الخطط التي نضعها، وعندما تحدث كل ما عليكِ فعله هو المحافظة على نفسك بقدر ما تعرفين.

بدا صوتها عالي النبرة: «هذه هي المشكلة. أنا لا أعرف ماذا علي أن أفعل».

- لكنني أعرف. لأنني تدربت على كيفية مواجهة أحوال طقسٍ كهذه أثناء دورات التسلق التي خضعت لها. يتعيّن عليك أن تثقي بي.

ابتعدت عنه قليلاً، ثم نظرت بعمقٍ إلى وجهه الذي بدا غريباً بفعل أشعة ضوء المصباح الصاعدة.

- إنني أثق بك فعلاً.

رفع يده الأخرى، ثم باعد ما بين سبابته وإبهامه بقدر بوصةٍ أو نحوها: «أتثقين بي بهذا القدر؟»

ابتسمت، وهي التي ظنت أنها غير قادرة على الابتسام، ثم دفعت إبهامه إلى مسافةٍ أبعد: «لربما بهذا القدر».

خيّمت الظلمة التامة على المكان عندما أحاطها بذراعيه، ثم تراقصت أشعة المصباح في الاتجاه المعاكس.

- سيكون كل شيء على ما يرام. سوف نكون على ما يرام. أعدك بذلك.

اقتربت منه، وراحت تتنشق عطره وهي تشعر بأمانٍ أكبر مما شعرت به في الأشهر القليلة الماضية.

- كم الوقت الآن؟

بدا كأنهما عالقان في هذه الشرنقة المتجمدة منذ أسابيع. وكأن الثلج قد محا كل إحساسهما بالوقت والواقع. رفع نك ذراعه كي ينظر إلى ساعته، فاغتنمت أديل الفرصة كي ترتاح أكثر في جلستها.

- شارفت الساعة على الثامنة والربع.

- كم بقي من الوقت كي يطلع الفجر؟

أخرج زفرةً قبل أن يردّ: «لست متأكداً. سيطلع الفجر هنا متأخراً عن لندن، لأننا في مكان أبعد إلى الشمال. ربما السابعة أو السابعة والنصف؟»

أدركت أن كليهما يعتقدان أنه وقت طويل، مع أن أياً منهما لم يقل ذلك، بالإضافة إلى توقع انخفاض درجة الحرارة أكثر فأكثر.

أسند نك رأسه على رأس أديل وضمّها إليه بشدة. بدا له أنها مرتعبة. هذه ليست أديل التي يعرفها أبداً. رآها في السابق تفقد أعصابها وتصاب بالاحباط أذا لم تسر الأمور كما خططت لها، لكن لم يسبق له أن شاهد تلك النظرة التي يلاحظها في عينيها الآن. لم تكن نظرة رعبٍ، بالرغم من أنها خائفةٌ بالفعل بل نظرة تشبه الارتباك واليأس. أرعبته هذه النظرة لأن أديل اعتادت أن ترسم خططها مسبقاً، لذلك هي تعرف إلى أين تتجه. رفع يده بعيداً عن كتفها كي

يشد البطانية فوقها، ثم وضعها برفق عندما انتهى. إن أول ما سيفعله في الصباح، في حال إصابتها بالهبوط الحاد في درجة الحرارة، هو استدعاء سيارة إسعاف بدلاً من استدعاء قاطرة للسيارة. افترض نك أن هذه الليلة التي سيمضيانها في السيارة لن تساعد في تحسين حالتهما البتة. تحرّك قليلاً كي ينظر إليها وهي ملتصقة بصدره. كانت عيناها مغمضتين، لكنها لم تكن نائمة. أليس لافتاً للنظر أن يتملكه إحساس غريب بأنها تحتاجه وسط هذه المحنة؟ شعر بالارتياح لأنه يمسك بزمام الأمور، لمرةٍ واحدةٍ على الأقل.

مرّت نصف ساعةٍ من الزمن بحسب الساعة المثبتة في لوحة العدادات، ثم تحرك نك قليلاً. اعترضت أديل أثناء ابتعاده عنها.

- أريد أن أشغّل المحرك لدقائق قليلة كي نحصل على هواء أكثر دفئاً في السيارة.

لم يفتح نك الباب لأن من شأن ذلك أن يفقدهما الحرارة المتجمعة بل زحف إلى المقعد الأمامي، وأدار مفتاح التشغيل الذي تركاه متدلياً في مكانه. بدا لهما مدوياً جداً بعد هذا الصمت الذي فرضه الثلج. تدفق الهواء الدافئ من فتحات جهاز التدفئة في السيارة، كما أحدثت المراوح ضجيجاً غريباً بدا مثل أصواتٍ آتية من البعيد. كان على وشك محاولة استعادة مكانه قرب أديل عندما سمع طرقةً مدوية على زجاج نافذة السيارة جعلته يجفل بشدة. هل هاجمتهما نعجة ما؟ اندفعت أديل إلى الأمام، وفتحت عينيها، ثم صرخت عندما ظهر وجهٌ على زجاج النافذة على بعد بوصاتٍ قليلة منها.

اختفى الوجه للحظة، وما لبثا أن سمعا صرخةً مكتومة: «جيف! جيف! وجدتهما. إنهما هنا».

ما لبثت أن بهرتهما حزمةٌ كبيرة من الضوء بعد أن تمايلت داخل السيارة. أطفأ نك المحرّك وفتح الباب، لكن ما إن وقف على رجليه حتى وقف وجهاً لوجه أمام مزارعٍ صارم الملامح.

- حسناً فعلت بتشغيلك السيارة يا بني، وإلا لكنتا مررنا من دون أن نلاحظ وجودكما هنا.

خرجت أديل من الجزء الخلفي للسيارة، وبدت صغيرة ومرتعبة. اقترب نك منها ووضع ذراعاً مطمئنة على كتفيها، وذلك ما إن ظهر أمامهما رجل آخر. سأل نك الرجل: «ما الذي جعلكما تبحثان عنا؟»

- ستعرفان كل شيء في وقته. دعنا نأخذكما أولاً إلى مكان جافٍ ودافئ.

تقف سيارتي اللاند روفر في الجهة المقابلة من هذه البوابة.

أبرز الرجل الشيء الوحيد الذي كان من شأنه توفير هذا الكابوس عليهما: مفتاح البوابة. لا بد أن الرجلين قفزا من فوقها كي يصلا إليهما.

بدأ المزارع في الشرح ما إن أصبحا داخل سيارة المزرعة التي بدت قديمة جداً. قال معرّفاً عن نفسه: «هاري سميث! أخبرني حفيدي قبل ساعتين أن أحدهم يرسل نداء استغاثة من بين الأشجار فأبلغته أنه يتخيّل ذلك، لكنه أكد لي بعد مضي ساعة من الزمن أنه رآها مجدداً. ناداني عند ذلك كي نلقي نظرة، فأحضرت جيف معي وخرجنا كي نبحث عنكما».

ابتسمت أديل ابتسامة باهتة، وقالت: «هل رأيتم إشارة استغاثتي؟»

- بالطبع رأيناها.

فكّر نك أنه بالرغم من التخطيط المحكم الذي رسمه لإبقائهما آمنين ودافئين، فإن إشارة أديل اليائسة هي التي أنقذتهما في النهاية. أما هو فعجز عن أن يكون الصخرة التي تستطيع زوجته الاعتماد عليها. أنقذت أديل نفسها مرة أخرى، وبدت مسرورة لأنها فعلت ذلك.

* * *

توقفت السيارة بهما بعد مرور عشر دقائق أمام بيتٍ ريفي مبني بأحجارٍ رمادية. خرج هاري من سيارة اللاند روفر، وتحدث قليلاً مع امرأة ظهرت من خلال بابٍ مفتوح، ثم رجع كي يقودهما إلى داخل المنزل.

- تعالا إلى الداخل كي تتناولا شراباً ساخناً، وستقوم ديلا بتجهيز غرفةٍ لكما.

ساعد نك أديل على الخروج من الجزء الخلفي من السيارة وقال: «شكراً جزيلاً سيد سميث. لا بد أنك تتساءل عن السبب الذي جعلنا نعلق مرتجفين في

مزرعتك».

أسرعت ديلا إلى إدخالهما إلى المنزل، وقدمت لهما كوبين كبيرين من شراب الكاكاو الساخن، بينما تفرغ نك لرواية قصتهما. كان نك قد انتهى من رواية القصة عندما عادت زوجة المزارع كي تشير لهما بأن الغرفة جاهزة.

قال نك: «لا نريد أن نحرمك من غرفتك سيد سميث. أستطيع أنا وأديل أن نبقى هنا على الأريكة أمام الموقد، إذا كان ذلك مناسباً لكم».

- لا مشكلة لدينا، أليس كذلك ديلا؟ قبل سنتين، حولنا أحد المباني خارج المنزل إلى مكانٍ لتمضية العطلات، لذلك ذهبت ديلا إليه كي تجهز السرير ولكي تشغّل جهاز التدفئة.

صاحت أديل: «سرير!»

وكزها نك بين أضلاعها؛ أصبحا الآن في أمان، وحصلا على الدفء، كما أنها شعرت بسعادة لأنها عانقت زوجها قبل نصف ساعة، أما الآن فإنهما يستطيعان تشارك سريرٍ معاً. لطالما اعتادت الاعراب عن انزعاجها من أمرٍ أو آخر في كل مرة يمكثان فيها خارج المنزل. فهي تعتبر الفرشات الوثيرة كبيرةً جداً، وتشكو من الخبز المحمص في طعام الفطور لأنه محمص أكثر من اللزوم. لكن كيف كان من المفترض أن يعلم الطاهي أن أديل لا تحب أن يكون الخبز محمصاً أكثر من اللزوم، بل يجب أن يُعرض قليلاً فقط أمام الشواية؟

سار هاري أمامهم خارج المنزل، وعبر الباحة نحو مبنى مربع الشكل ذي باب مصنوع من الأخشاب الثقيلة. بدا الجو في الداخل دافئاً بشكلٍ مدهش. شاهدا غرفة جلوسٍ ومطبخ صغيرين في الطابق الأرضي، ولاحظا وجود درجٍ دائري يؤدي إلى غرفة نوم تحتوي على حمام داخلي. اختفت ديلا وهاري على الفور، أما هو وأديل فوقفا وحيدين في الغرفة، وراحا يحدقان ببعضهما البعض.

٩ - لن أندم!

تناولت أديل منشفة وقالت: «أريد أن أستحم».

أومأ نك موافقاً: «إنها فكرة جيدة».

لماذا وجدت أن الوقوف مع زوجها في غرفة نوم واحدة أمر صعب؟ وقفا بشكلٍ يستنتج أي شخصٍ بأنهما غريبان عن بعضهما البعض. نظر نك إليها وسيطرت على وجهه ملامح غريبة.

- لن تجري المياه الساخنة تلقائياً كما تعلمين.

- ماذا؟

- أتحدث عن الحمام. حتى لو تم اختراع حوض يمتلئ بشكل تلقائي، فإنني أشك أن يكون هذا الاختراع قد وصل إلى مقاطعة لايك...

أشاح بنظره عنها، وراح يتأمل في نقطةٍ ما تقع إلى يمينها.

ابتسمت أديل وقالت: «أنت تفكر في كيفية بناء حوض حمامٍ يمتلئ من تلقاء ذاته. أليس كذلك؟»

ابتسم ابتسامة عريضة: «أهذا ما يبدو عليّ؟»

دفعت أصابعها في طيات المنشفة الناعمة التي تحملها، وأومأت بهز رأسها قليلاً. إنه نك المعهود بالنسبة إليها، نك الذي تعود أن يفكر دائماً بخطة ما. أما هي فقد شعرت بالاحباط بسبب استغراقه في عمله ونسيانه كل شخصٍ آخر، وكل شيء آخر. لكنها أحبت الطريقة التي يعمل عقله بها. إنه سريع وخلاق، كما أنه يأتي على الدوام بأمرٍ غير متوقع. فكّرت في الطريقة التي واجه بها وضعهما الصعب قبل قليل. بدا رائعاً لأنه أمسك بزمام الأمور، وفكّر بالمشكلة بطريقة عقلانية، هذا في الوقت الذي غرقت هي فيه بمشاعر

التشاؤم. نظرت نحوه وقالت: «من الأفضل أن أذهب و...».

أسرعت بعدها إلى الحمام، وأغلقت وراءها الباب الخشبي الخشن. بدا المغطس رائعاً، فهو من النوع العميق الذي يسمح لها بتغطيس جسمها حتى مستوى عينيها فيما لو أرادت ذلك، وهي تريد ذلك فعلاً. لم تشعر بالبرد فقط، لكنها أحست أن جسمها متسخ نتيجة سقوطها على الثلج، والاجهاد الذي شعرت به بسبب الرحلة الطويلة. فجأة شعرت أن أقصى أمنياتها هي الحصول على بشرة نظيفة ناعمة، تنضح برائحة زيت الاستحمام القابع على رفّ الحمام الصغير. نزعت معطفها، ثم علّقته خلف الباب، لكنها تلقت صدمة عندما استدارت لتواجه حوض الاستحمام، فشهقت.

رأت عنكبوتاً كبيراً سميناً، ذا وبرٍ كثيف على بعد بوصات قليلة من فتحة مصرف المياه. تحرك العنكبوت قليلاً إلى الأمام قبل أن يتوقف، ولربما كان يتفحصها. يُحتمل أن يكون هذا العنكبوت أحد الأقرباء البعيدين لذلك الذي طردته من حوض استحمامها في الأسبوع الماضي، ولعله جاء كي ينتقم لشرف العائلة. شبكت يديها قبل أن تأخذ نَفَساً عميقاً. سبق لها أن فعلت ذلك مرةً من قبل، وهي قادرة على تكراره ثانية. يُحتمل أن يكون العنكبوت قد أحس بخوفها، لأنها ما إن تقدمت خطوة حتى تقدّم هو أيضاً. شعرت بدافعٍ قوي للصراخ. يكفيها أنها مرت بيوم من أيام جهنم، لذلك فإن كل ما تريده هو التمتع بحمامٍ رائعٍ دافئ. لماذا تعذّبها الظروف بهذه الطريقة؟

تراجعت قليلاً، وجلست فوق غطاء المرحاض. ليس اليوم... إنها لا تستطيع القيام بهذه المهمة هذا اليوم. تحملت أعصابها ما يكفي من التوتر ليومٍ واحد، لذا صرخت: «نك!»

جاء نك مسرعاً من خلال باب الحمام.

- ما الأمر؟ أتحتاجين إلى طبيب؟

عضّت على شفتها، ثم رفعت حاجبيها. إنها تحتاج فقط إلى طبيب نفسي: «لا! هناك...».

حرّكت يدها بدلاً من التلفظ بالكلمة المناسبة: «... في...».

حركت يدها أكثر قبل أن تكمل: «أتعتقد أنك تستطيع...؟»

ابتسم نك ابتسامةً عريضة. إنه مليء بالحيوية وبارز العضلات، لكن ما هو سبب سروره البالغ؟ ألعله يستمتع بلحظات ضعفها؟ شدّت المنشفة أكثر حول جسمها، وتأوهت عندما حمل العنكبوت بحركة حاذقة، واختفى مسرعاً في غرفة النوم. بعد لحظات قليلة سمعت صوت خطوات على الدرج، ثم سمعت صوت فتح الباب الأمامي.

أرادت أن تنسى الأمر، ففتحت صنابير المياه، وبدأت في خلع ملابسها. طوت كنزة نك وقميصه، ووضعتهما على كرسي الخيزران الصغير الموجود في الزاوية، وما لبثت أن سمعت صرير الباب عند انفتاحه. تناولت منشفتها وغطت الجزء الأمامي من جسدها.

- طردتُ هذا الفضولي، لذلك...

توقف نك بغتة وتمتم معتذراً، ثم انسحب نحو الغرفة.

يا للغرابة؟ إنهما متزوجان، لكنهما يتصرفان كمراهقين. ما أهمية أن يراها نك عارية؟ سبق له أن رآها على هذه الحالة مراتٍ لا حصر لها. أدركت فقط أن هذا الأمر مهم، فهناك شيء في لا وعيها حذّرها من إظهار ضعفها، ودعاها إلى حماية نفسها. أسقطت المنشفة أرضاً، ثم تابعت نزع ملابسها. لاحظت أن الحمّام هدّأ من روعها قليلاً.

فور خروجها من الحمام اكتشفت أن بشرتها قد استعادت نضارتها ونظافتها ورائحتها الحلوة، أي كما تحلم على الدوام. تذكرت بأسف أنها لا تمتلك ثياب نوم نظيفة كي ترتديها غير ثياب نك. استغربت أنها لم تكترث لهذا. بدا قماش القميص ناعماً ودافئاً، بالإضافة إلى أن القميص حملت عطره ما أعطاها شعوراً بالأمان يتعدى القدرة على التحليل.

فتحت باب الحمام بحذر، فرأته مستلقياً على السرير، وقد أسند رأسه على يديه ووضع ساقاً فوق ساق واستغرق في التأمل بالسقف. أدار رأسه قليلاً عندما انفتح الباب أكثر.

- هل تشعرين بتحسن؟

انشغلت في تسوية كمي القميص: «كثيراً. جاء دورك الآن، إذا أردت».

قفز نك من السرير وانتهى واقفاً بالقرب منها. ابتعدت عن الباب مفسحةً له مجالاً ليمر، ثم أسرعت بالاستلقاء على أقرب جهةٍ لها من السرير. استغربت من انتقائها الجهة اليمنى. إنها الجهة المفضلة لديها، فجسدها لم ينسَ معنى النوم بقربه حتى بعد مرور أشهرٍ على إجبار نفسها على النوم في وسط السرير. لم تتمكن من الاستسلام للنوم بالرغم من محاولاتها المتكررة، وبالرغم من الألم الذي أحست أنه يخترق عظامها.

حاولت الاسترخاء مستمتعة بصوت المياه الجارية في غرفة الحمام المجاورة، لكن بقيت فكرة مزعجة تراوح في خلفية دماغها؛ لن يمر وقت طويل قبل أن يأتي نك إلى السرير كي يقاسمها إياه، وهي الفكرة التي منعتها من الاستسلام للنوم الذي يحتاجه جسدها بشدة. مضى عام كامل تقريباً لم يتقاسما السرير خلاله، وبدا من المستغرب أن ما كان ذات يوم طبيعياً وحميماً أصبح الآن صعباً ومصطنعاً. انقلبت أديل على جنبها بحيث أصبحت تواجه وسط السرير، وابتعدت بذلك عن باب غرفة الحمام. أغمضت عينيها وابتلعت الدموع التي هددت بالانطلاق من رموشها قبل أن تنسكب على خدّيها.

توقف صوت تساقط المياه، فشعرت بتوترٍ مفاجئ. فُتح باب الغرفة بعد لحظاتٍ قليلة، وما لبثت أن سمعته يسير حول السرير. انبعج الفراش قليلاً عندما جلس نك عند طرفه. لبث ساكناً لمدة اعتبرتها أديل دهوراً، وتساءلت في سرّها عما إذا كان ينظر إليها. إن التظاهر بالنوم ليس إلا تصرفاً طفولياً من دون شك. فتحت جفونها ونظرت نحوه. بدت صورته مشوشة قليلاً، لكنه بدا رائعاً بالرغم من ذلك. بدت بشرته رطبة ونظيفة بعد استحمامه. ابتسم في وجهها، لكن حركة شفتيه أذابت قلبها.

توسعت ابتسامته قليلاً: «مرحباً!»

فتحت عينيها أكثر قليلاً، وأجابت: «مرحباً».

رفع نك اللحاف، ثم صعد إلى السرير. بدت رائحته زكيةً مثل وسامة مظهره. تساءلت إن كان يحق لها أن تستنشق رائحة عطره كلها مرةً واحدة.

أغمضت عينيها مجدداً، وأخرجت زفيرها بدلاً من ذلك، وانتهت تنهيدتها أخيراً برجفة صغيرة.

- هل ما زلتِ تشعرين بالبرد؟

لم يضطر إلى رفع صوته عن درجة الهمس، لأنهما كانا قريبين جداً بحيث أن كلماته بعثت الدفء في خدها.

- قليلاً فقط.

كانت هذه هي الحقيقة، لأن ديلا قامت بتشغيل جهاز التدفئة، لكن هذا البيت الصغير المخصص لقضاء العطلات بقي خالياً لأشهر عدة. كانت الغرفة باردة نسبياً، لكنها بقيت مع ذلك أدفأ من الخارج. لاحظت أن غطاء السرير المتموج النظيف كان بارداً بعض الشيء. رفع نك اللحاف بذراعه قليلاً، وهكذا أوجد مساحة تكفيها. ترددت قليلاً...

- هيا! حرارة جسدينا ستدفئنا.

إنه على حق. هاهو نك يبدو عملياً مرةً أخرى.

عملياً؟! تعجبت لسرعة تعوّدها على إطلاق هذه الصفة عليه. لو أن شخصاً سواها أطلق عليه هذه الصفة قبل أربع وعشرين ساعة لسخرت منه. قد تكون روحه حرّة أو أنه مندفع، لكنه ليس عملياً. حدث الكثير منذ أن رن جرس المنبه هذا الصباح، لأنها بدأت في رؤية جانبٍ جديدٍ كلياً من زوجها. هذا الجانب الجديد لم ينشأ منذ انفصالهما، لكن نك أبرز اليوم هذا الوجه بسهولة، ما حملها على الاعتقاد بأنه كان موجوداً على الدوام. لكن لماذا لم تلاحظه من قبل؟

شعرت أديل بالسرور، إلا أنها شعرت بعاطفةٍ أخرى تتحرك تحت السطح، وعندما فكّرت في إطلاق وصفٍ عليها، اكتشفت أنها الشعور بالذنب. شعرت أنها مسؤولة عن هذا الوضع، لأنها أعطته دور الأحمق منذ بداية علاقتهما، ودور الرجل المرح الشقي والمحبوب في الوقت ذاته. لم تعطه فرصة لإثبات ذاته، وبالتأكيد لم تعامله كشريك مساوٍ لها. ركّزت على وجهه، فأدركت أنه ما زال ينتظرها.

- اسرعي. بدأت أشعر بتعبٍ في ذراعي.

استدارت إلى جنبها الآخر بحيث لم تعد تواجهه، لكنها تراجعت إلى الخلف حتى كادا يتلامسان. أخفض ذراعه حتى غطاها اللحاف. جذبت اللحاف حتى وصل إلى مستوى ذقنها كي توقف تسلّل الهواء البارد، أحاطت ذراعه بخصرها، بينما وضعت قدمها بلطفٍ فوق كاحله. لم تخطط مسبقاً لهذا الوضع، بل وصلت إليه بغريزتها.

قال نك بعد أن قرّب فمه من أذنها: «لا تقلقي! لا أنوي الانقضاض عليك. يمكنك أن تثقي بي».

أطبقت جفونها، وأومأت قليلاً. شعرت أنها تستطيع أن تثق به في أي شيء، لكنها كانت مجهدة كثيراً كي تستكشف الاحساس الغامض بخيبة الأمل الذي رافق كلماته. شعرت بغيمة ضبابية تخيّم على دماغها فيما استرخت عضلاتها. لو كانت أكثر وعياً لربما شعرت بالقلق، لأن آخر ما تفكّر به هو أن يكون هذا هو وضعهما الطبيعي.

* * *

تحسس نك البشرة الناعمة التي تلامس بشرته. بدا له أن عضلاته استنزفت كل طاقتها خلال تلك الليلة. وبالرغم من أنه خطط ذهنياً لتحريك رجله ومغادرة السرير، لكنه افتقد القدرة الحقيقية على تنفيذ ما فكّر فيه. ما إن بدأ دماغه يستعيد التركيز حتى أدرك أن افتقاده للقوة ليس هو السبب الذي منعه من مغادرة السرير. إنه ببساطة لا يريد أن يتحرك. سوف يكون مجنوناً لو ابتعد مسافة ميليمتر واحد عن أديل. بدت وديعةً جداً وهي تتنفس بنعومة وخفة، بينما كان شعرها الحريري يداعب أنفه. لكن افتتانه بها تعدى جمالها، ووصل إلى قوتها واندفاعها وكل تناقضاتها...

طبع قبلة صغيرة على بشرة القسم الأعلى من ذراعها، فندّت عنها همهمة من الحبور. شعر بالغضب الشديد منها لأشهرٍ عدة بعد انفصالهما، وأقنع نفسه بأنها قضت على حبهما، إلا أنه إذا أراد أن يكون أكثر دقة الآن لاعترف لنفسه أنه هو الذي سمح بزعزعة هذا الحب. في النهاية، لم يعد قادراً على إنكار

قوة مشاعره نحوها، ولهذا السبب رفض قبول عدة وظائف مهمة في الجانب الآخر من الأطلسي بغية تهيئة الأجواء المناسبة لاستعادتها إليه. لم يعتقد أنه قادر على أن يحبها أكثر مما فعل حتى الآن، لكنه كان مخطئاً.

اكتشف خلال الأسبوع المنصرم أنه يحبها أكثر من أي وقتٍ مضى، كما سيطر عليه شعور خفي بأن ذلك يرجع إلى أنه بدأ يفهمها لتوه. بدت أشهر انفصالهما بمثابة عقوبةٍ في البداية، لكن ألم يكن لذلك البعد بعض الفائدة؟ نظر إليها نظرةً جديدة عندما عاد، واكتشف كيف أنه تعامى عن أمورٍ كثيرة في الماضي. تمكن الآن من رؤية أمورٍ تتعدى درع الحماية الخارجية فوصل إلى حد ملاحظة الضعف الكامن وراء ذلك الدرع. شعر أنه يحب أديل المجروحة والرقيقة أكثر من نظيرتها البطلة المتفوقة.

حطمت أديل كل أوهامه بشأنها عندما خالفت ما أمرها به، وعليه الآن أن يشكرها على ذلك. لم يكن لزواجهما حظ من النجاح لو أنهما حافظا على الطريقة التي انتهجاها في البداية. لم تعد أديل خارقة كما كانت من قبل بل أصبحت امرأة حقيقية. تحتم عليه أن يعترف أنها بعثت فيه دفئاً شديداً، وبدت على صورتها البشرية عندما اقتربت منه أكثر وأخذت تستيقظ ببطء. تحركت أجفانها قليلاً، وما لبثت أن فتحتهما بعد مرور ثوانٍ قليلة. حرّكت رأسها، ثم تحركت أكثر كي تنظر نحوه.

- كم الساعة الآن؟

نظر إلى الساعة الموضوعة على طاولة السرير فوجد أنها تجاوزت السابعة قليلاً، لكن الغرفة بدت شديدة الإضاءة بسبب انعكاس نور الفجر على الثلج في الخارج، والذي دخل من خلال فسحة ما بين الستائر.

- إنها السابعة والخمس دقائق، أو نحو ذلك.

- هل أشرقت الشمس؟

- ليس تماماً. إنها ساعةٌ ساحرةٌ تماماً.

أغمضت عينيها وفركت جبهتها قليلاً قبل أن تسأل: «أي سحر هذا؟»

- هذه الفترة من الوقت. إنها ساعةٌ ساحرة تماماً.

- تبدو لي ساعةً ثقيلة على أجفاني.

فتحت عينيها مجدداً، وتراجعت قليلاً بحيث تتمكن من التركيز على وجهه. تمنى لو أنها لا تعود إلى النوم مجدداً.

أضافت: «أنا لا أفهم ما تقول».

ضحك وهو يقول: «إنها عبارة تختص بصناعة الأفلام. لا تدل هذه العبارة على ساعةٍ كاملة من الزمن، بل على نصفَي الساعة الواقعين ما قبل شروق الشمس وما بعد غروبها، أي عندما يمتلك الضوء خاصية فريدة. إنه وقت رائع، فعتمة الليل تتحول إلى ضوء النهار. إنهما متناقضان تماماً، لكن عندما يلتقيان فإن شيئاً رائعاً يحدث».

تثاءبت أديل قبل أن تقول: «لا بد أن الطقس البارد أثّر عليك. إنك تهذي قليلاً».

- لم أكن أكثر جديةً في حياتي.

أغلقت فمها، ونظرت نحوه.

- أنا وأنتِ على طرفَي نقيض أديل. لكننا عندما نتفاهم فإن شيئاً سحرياً يحدث.

استند على أحد مرفقيه كي ينهض ويتأملها. إنها زوجته! لماذا وصل الغباء به إلى حد أنه كاد يدعها تفلت منه؟ إنها الكبرياء الحمقاء. لكنها هنا الآن، وبدا له أن عينيها البنيتين الواسعتين تكتسبان عمقاً إضافياً كل ثانية. سيتأكد هذه المرة من أنه لن يخسرها ثانيةً. أحنى رأسه ولامس جبينها بشفتيه. كانت لمسةً خفيفة، لكنها كافية كي تبعث الانتعاش فيه. لم ينتظر أكثر من جزءٍ يسير من الثانية كي يقترب أكثر ويعانقها، لكنه استطاع هذه المرة أن يتمتع بنعومة عناقها.

أصدرت أديل أنةً خفيفة من أعماق حنجرتها، وما لبث نك أن جذبها نحوه. لم يستطع كبح جماح نفسه، إذ شعر برغبةٍ جارفةٍ في لمسها. قرّبت رأسها منه وارتعشت تحت سياط لمساته، لكن فكرةً لمعت في ذهنه على نحوٍ مفاجئ. فكرة لم يتمكن من استبعادها إطلاقاً بغض النظر عن ردة فعل أديل. ابتعد عنها

ففتحت عينيها من فرط دهشتها.

- أديل! أنا...

تجعدت المسافة الفاصلة ما بين حاجبيها.

- أريد أكثر من التأكد من أنك تريدين حصول هذا بالفعل. لا أريد أن نقيم علاقة حميمة فقط لأنك تشعرين بالنعاس وتعجزين عن اتخاذ القرارات المناسبة. لا بد أن الأربع والعشرين ساعة الماضية كانت مثيرة جداً، لهذا فإنني لا أريد أن أفعل شيئاً يُحتمل أن...

رفعت إحدى أصابعها ووضعتها فوق شفتيه. استخدم نك كل ما يمتلك من إرادة كي لا يخنق الجزء الباقي من جملته. تمكّن بعد جهد من إكماله أخيراً: «...تندمي عليه».

حرّكت يديها فوق جهتي وجهه، ثم راحت تمسد جبهته وحاجبيه بأطراف أصابعها. شعر أنه يكاد يختنق بسبب التعابير التي ارتسمت فوق وجهها.

- نك!

لفظت اسمه كأنه سرّ ثمين، وهكذا تمكّن من معرفة ردّها. أوشك على أن ينحني كي يعانقها مجدداً، لكنها ضحكت ودفعته، فتراجع واصطدم بالفراش. رأى الابتسامة العريضة التي ارتسمت على وجهها عندما راحت تقترب منه ثم تبتعد قبل أن تنحني وتعانقه.

سبق له في إحدى المرات أن وصف أديل بأنها باردة كالجليد، لكن عدداً كبيراً من الناس يرتكبون الغلطة ذاتها بسبب قلة انتباههم. إنهم يرون وميض الجليد من الخارج، لكنهم يعجزون عن ملاحظة اللهيب المستعر في الداخل. ذابت أديل بين ذراعيه كما تذوب ألسنة اللهب هذه، وما لبثت أن استعرت أكثر فأكثر.

* * *

انهمكت أديل في فتح أبواب الخزائن وإغلاقها بحثاً عن أكوابٍ كبيرة. رأت سلةً مليئة بالأطعمة فوق إحدى طاولات المطبخ. احتوت السلة على الشاي والقهوة والحليب، وعلى أشهى خبز أبيضٍ طري رأته في حياتها. لا بد

أن ديلا وضعتها هناك الليلة الماضية عندما جهزت السرير، لكنهما لم يلاحظا هذه السلة من قبل بسبب التعب الذي شعرا به هي ونك. ارتجف قلبها بمجرد التفكير فيه. بالرغم من ذلك الشعور الدافئ اللذيذ الذي شعرت به في أعماقها الليلة الماضية، فإن شعوراً بالقلق لازمها كأنه ينذرها بأن تكون على حذر. بدأت الآن في التساؤل ما إذا كانت قد فقدت صوابها. بدا أن ما جرى بينهما قد حدث لليلةٍ واحدة وفي لحظة جنون. سبق لها أن أبلغت نك أنها لن تندم، وعلى الرغم من أنها عنت ما قالته في حينها، لكنها خشيت أن يكون ذلك مجرد تمنيات. لكن ما جرى ليس مجرد حادثة لليلةٍ واحدة. ما حدث يبدو مربكاً جداً!

تهالكت على أحد الكراسي الخشبية التي تحيط بطاولة ضخمة مصنوعةٍ من خشب الصنوبر، وأسندت رأسها بيديها. لم تكن قد وجدت حلاً لأزمتها بعد عندما سمعت صوت قدمي نك وهو يهبط الدرج قبل أن يقتحم المطبخ. وقفت ثانية وتهيأت كي تقول شيئاً ما، وسرعان ما رفعها نك بين ذراعيه، وغمرها بعناقه.

- صباح الخير مرةً ثانية سيدة هيوز.

كل ما استطاعت قوله هو: «أتريد شرب القهوة؟»

ظهر عليه بعض القلق، لكنه تخلص من هذا الشعور بسرعة، وقال: «إنها فكرة جيدة. أشعر أن معدتي خاوية، لذلك من الأفضل أن نتزود بالوقود أولاً».

انصرفت أديل كي تملأ الغلاية، لكنه تمطى فوق كتفيها وراح يمرّغ ذقنه في عنقها. شعرت أنه إذا استمر في حركته هذه فإنها سوف تفقد صوابها.

- لِمَ لا تقصد البيت الريفي كي تعرف إذا ما كان هاري سيقلّنا إلى حيث تركنا سيارتنا، ثم يرشدنا إلى الطريق الرئيسية، وهكذا أنهمك أنا في تحضير بعض... الوقود؟

عاد نك إلى وضعية البرودة. غادر المطبخ، وما لبثت أن سمعته يصفر عندما عبر الباحة.

ماذا فعلت؟ لقد تغاضت عن دفاعاتها هذا الصباح، فهل يعني هذا أنها وافقت على المصالحة؟ بدا لها أن هذا هو موقف نك أيضاً. بدا كأنه نسي كل الأمور التي ساهمت بانفصالهما منذ البداية.

أنزل نك أذى كبيراً بها عندما تركها آخر مرةً. لم تتخيّل أنها قادرة على تحمّل كل هذا المعاناة في حال فشل زواجهما مرةً ثانية. تعيّن عليها أيضاً أن تفكّر في نفسها وأن تبقى في أمان. بالرغم من كل شيء لم يعلم نك بأمر إجهاضها، لكن الوقت ليس ملائماً الآن كي تخبره. كيف يمكنها أن تفسد مزاجه بأمرٍ كهذا؟ شعرت أنه يتوجب عليها أن تقول شيئاً، وأن ترسم بعض الحدود. يُحتمل أن يكون لهما مستقبل معاً، لكن الأمر يتطلب بعض الوقت من أجل ردم الثغرات التي ظهرت بينهما. يحتاجان هذه المرة إلى التخطيط ووضع الأسس المتينة لمستقبلهما. أما إذا لم يكن نك مستعداً للموافقة على هذا، فإنهما لن يستطيعا قطع شوطٍ كبير في مسيرتهما.

١٠ - لماذا عدت؟

ركز نك انتباهه على الطريق أثناء قيادة السيارة، وهكذا حصلت أديل على فرصةٍ للتفكير بما أرادت أن تقوله. بعد أن تناولا القهوة أرسلته كي يستخدم هاتف آل سميث ليجري مكالمة هاتفية مع إنفرغارينغ، فيشرح لوالدته سبب تأخرهما. شوّه الانبعاج الذي تعرضت له خلفية السيارة منظرها قليلاً، لكنه لم يتسبب بأذى كبير لها. بعد أن ودعا ديلا وزوجها انطلقا بالسيارة، وتولت أديل قراءة التعليمات من اللائحة التي حصلت عليها من هاري. لم يكونا بحاجة كبيرة إلى سحر التقنية العالية في هذه الظروف. أصرت ديلا على أن يأخذا سلة الطعام معهما لبقية رحلتهما، كما قامت بتجفيف ملابس أديل قبل مغادرتها، وهو الأمر الذي بعث الارتياح فيها.

وعد نك هاري وديلا بأنهما سوف يعودان في الصيف لتمضية عطلة حقيقية، لكنه لم يفطن إلى أنها لم تشارك في وضع خططٍ كهذه. كانت الشمس قد اعتلت السماء، ولاحظا أن الثلج غاب عن تلال مقاطعة لايك التي يتركانها وراءهما. حسبا أنهما سوف يصلان إلى الفندق ظهراً إذا حافظا على سرعة السيارة كما هي. ابتسم نك ابتسامةً عريضة، وقال: «ستكون هذه أمسيةً رائعة الآن؟»

- هل ستكون كذلك؟

إنها تخشى الوصول إلى هذه المرحلة الآن أكثر من أي وقتٍ آخر، لكنها ارتاحت لأنها تصورت الوصول إليها مسبقاً. إنها تمتلك استراتيجية يتعيّن عليها اتباعها. هل عليها أن تمنح نك ثقتها عندما يطير من الفرح؟ وهل عليها أن تُفاجأ لأنه لم تنبت له أجنحة قبل الآن؟

- لا يتعيّن علينا الآن أن نتظاهر بأننا سعيدان معاً، لأننا سعيدان فعلاً.

حسناً! يجدر بها الآن أن تقول شيئاً، وذلك قبل أن تنتهي بالعودة إلى نك بطبيعة الحال. يتعيّن أن يكون ما يقوله قرارها أيضاً، وهي لا تستطيع أن تسمح لحماسته أن تجرفها معها. هناك أمور كثيرة معرضةٌ للخطر هذه المرة.

أحس نك أن لدى أديل ما تقوله، وذلك قبل دقيقتين من فتحها لفمها. من الطريقة التي راحت تتنفس بها أدرك أنها تراجع شيئاً في ذهنها. لم يكن هناك من سبب لإثارة هذا الموضوع، والاستفسار منها عن المشكلة قبل أن تحضّر نفسها، لأن من شأن ذلك ضرب وترٍ حساسٍ عندها وإثارة توترها الشديد، إن أفضل خطة متاحة أمامه هي التركيز على الطريق والانتظار. بدأت بالتنحنح قبل أن يصلا إلى التقاطع التالي.

- نك!

- نعم.

حسناً! من الأفضل أن تبقى نبرة صوته عادية وألا يقوم بأي أمرٍ يُخرج أديل عن أطوارها. أما إذا دمّر تسلسل أفكارها، فإنها قد تعود لتمتمتها الصامتة ثانية. إذا حدث ذلك مراتٍ عديدة، فإنها سوف تعدل عن الخطة برمتها، ولن يستطيع أحد أن يعرف ما كانت تزمع أن تقوله، وهذا هو الأمر الذي سيدفعه إلى حافة الجنون لأيام عدة. افترض نك أنه لو تمكن من تطبيق هذه الطريقة في الماضي بدلاً من روايةً نكتة لما وصلت الأمور إلى حد الغليان بينهما.

- أعتقد أنه يجدر بنا أن نسوّي مسألةً ما.

- آه!

رفع حاجبيه لكنه لم يقل شيئاً، لأنه أراد أن يسمع المشكلة منها.

- يتعلق الأمر بما حدث بيننا الليلة الماضية... حسناً! فكرت... هذا الصباح...

- بماذا؟

- اعطِني لحظة...

ركّز نك انتباهه على تجاوز شاحنة، بينما انهمكت أديل في استجماع شتات

أفكارها. شبكت أصابع يديها حتى اتخذت قبضتها شكل كرة صغيرة.

- لست واثقة من أننا نستطيع العودة إلى العيش سوياً بهذه السرعة.

- لكنكِ... نحن...

- أعرف. أنا لم أقل إن الأمر لم يكن رائعاً...

- أتقصدين أن الأمر كان... لمرةٍ واحدة؟ وأنه حدث إكراماً لما كان بيننا في الماضي؟

- لا!

- إذاً ماذا حدث؟ أتريدين إعطاء هذا الزواج فرصةً أخرى أم لا؟

- لا تظن أنني أقول لا، يا نك. إلا أننا لم نتمكن من حل أي شيء. ما زال يتعيّن علينا أن نواجه الأمور التي فرّقتنا في الماضي، ويتعيّن علينا أن نقرّر بعدها ما إذا كان هذا ما نريده حقاً.

فتر نك كلماتها هذه على الشكل التالي: تحتاج أديل إلى التفكير في ما تريده حقاً. لكنه لم يتأخر في اتخاذ قراره.

- حسناً!

- نك، أنا...

- أنا مضطر يا أديل، إذا لم تمانعي، إلى التركيز على القيادة قليلاً، لأن الازدحام ازداد بسبب اقترابنا من غلاسكو.

- لكن...

صمتت تماماً، ثم حدّقت بالطريق الممتدة أمامهما.

أراد أن يُظهر لها أن الأمور لن تجري بحسب ما تشتهي على الدوام. أراد أيضاً أن يبيّن لها أنها ليست الشخص الوحيد الذي يحتاج إلى وقتٍ للتفكير. بعث التركيز على قيادة السيارة الهدوء في نفسه، وبقي يفكّر في ما قالته لمسافة عشرين ميلاً أخرى. كان يجدر به أن يعرف أنهما سيصلان إلى هذه المرحلة، لأن أديل لا تناقش الأمور بعفوية.

تذكر الطريقة التي جذبته بها نحو السرير في ذلك الصباح، ثم أطلق صفرةً صغيرة. حسناً! تتصرف أديل بعفوية في بعض الأحيان، لكنه أدرك أنها

تحتاج، في معظم الأحيان، إلى مجالٍ كي ترتب الأمور في ذهنها. لا يستطيع المرء أن يفرض الأمور فرضاً عليها، لذلك تحتاج إلى وقتٍ كي تتكيّف وتعيد تركيزها. هذا هو السبب الذي دفعها إلى أن ترغي وتزبد عندما قدّم لها إعلانه المدوي عن الوظيفة التي حصل عليها في لوس أنجلس. شعر بحماسةٍ شديدة في ذلك الوقت إلى درجة أنه لم يتوقف قليلاً للتفكير. لم يكن من المستغرب إذاً أن تثور ثائرة أديل. تمكّن الآن أن يرى الموقف برمته بوضوحٍ أكبر، وذلك بعد أن هدأ غضبه تجاهها.

تمنى لو أنه أعطاها وقتاً أطول يومها. لو أنه فعل لتقبلت الفكرة ولانتظرت يومين قبل أن تبدأ في تصفح شبكة الإنترنت بحثاً عن رحلاتٍ أرخص تكلفة، بالإضافة إلى تفحص ما لديها من أعمال. كانت أديل، في تلك الحالة، ستقوم باستعراض مجموعة من الأفكار كي ينجح الأمر.

حسناً! سيكون الأمر مختلفاً هذه المرة. إنه ينوي إعطاءها الوقت والمجال بقدر ما تريد، وسيتحدث عن أي أمرٍ تريد التحدث عنه. أراد نك أن يتأكد من سير الأمور على طريقته، لذلك صمّم على أن يكون فاتناً بقدر ما يستطيع في حفلة هذا المساء، فهو لا يرغب في إعطائها أي عذرٍ يدفعها إلى الاستسلام لمخاوفها ومهاجمته ثانيةً.

- حسناً! فهمت قصدكِ. بماذا تريدين أن نتناقش؟

مرّت فترة صمتٍ طويلة، ربما لأنها لم تتوقع ردّه هذا. أخيراً، قالت: «أظن أنه ينبغي علينا مناقشة أمر وظيفتك في هوليود برمتها».

- أنت على حق. يتعيّن علينا أن نسوي ذلك الأمر.

أحس أن أديل تنظر نحوه.

- نك، هل أنت بخير؟

- أشعر أنني أفضل حالاً مما كنت عليه في أي وقتٍ مضى.

- حسناً! دعنا نبدأ الحديث إذاً.

لم يكن هذا بالخيار الأسهل، أي النقاش العميق أثناء قيادة السيارة. لكن كلما ناقشا أموراً أكثر قبل الحفلة كلما كان ذلك أفضل. دخل نك في صلب

الموضوع على الفور.

- أعرف أنني أغضبتك عندما غادرت البلاد، وأنا آسف لأنني كنت وقتها على صدامٍ معك، ولم يكن تفكيري سليماً.

- كنتَ غاضبة منك أنا أيضاً.

- لا أعتقد يا حبيبتي أن أحداً سيعارضك في هذا.

تساءل في سره عما إذا كانت قد اشترت أطباقاً بدل تلك التي تحطمت.

- توقعت أن تقصد الحانة ثم تعود إلى المنزل كي تروي نكتة عما حدث، وذلك جرياً على عادتك. شعرت بالصدمة عندما علمت أنك أصبحت في المقلب الآخر من العالم.

- أعتقد أنني كنت مصدوماً أنا أيضاً. لم أستطع التصديق بأنني قادر على التصرف على هذا النحو. حاولت الاتصال بك عندما هبطت الطائرة. ألم أفعل ذلك؟

استرق نظرة نحوها فاكتشف أن وجهها قد احمرّ من الخجل.

- نعم. فعلتَ ذلك، لكنني قطعت الاتصال.

- احتجتِ حينها إلى مزيدٍ من الوقت كي تهدأي. كان عليّ أن أفهم ذلك.

- لا، نك. لا تلقِ باللوم عليك وحدك. وقعت تحت تأثير نوبةٍ عصبية، بكل بساطة. لكنني كنت خائفة. كنت أراك بين الحين والحين فقط، إلى أن انتهت علاقتنا، ولم يبقَ منها شيء غير المكالمات الهاتفية البعيدة. لم أرغب في الوصول إلى مرحلة لا نعرف بعدها بعضنا بعضاً.

هذا بالضبط ما حدث لوالديها، وبالرغم من أنها تظاهرت بعدم الاكتراث فإنها تعرف أنها ما تزال تتعذب كثيراً. تعرف أن الفراغ الذي تركته في حياة والديها سرعان ما مُلِئ برحلات العمل، والتخطيط لرحلات الترفيه إلى الخارج. لكن عندما قررت أديل الانتقال للعيش معهما اكتشفت أن كل ما تعرفه عن «البيت» تبخر كلياً. هذا هو السبب الذي جعلها تعتبر أن شراء منزلٍ واستثمار الوقت والطاقة فيه أمران مهمان بالنسبة إليها. كان نك أحق لأنه افترض بأنها لن تتردد في ترك بيتها الزوجي من دون سابق إنذار. لم يفهم لماذا

لم تحاول حتى أن تجعل علاقتهما تنجح؟ تمنى أن يمثّل قيمة أكبر بالنسبة إليها.

- أعرف أنني تسرعت في طرح الموضوع برمته، وتوقعت أن تعمدي إلى الانضمام إلي، لكنني فعلت ذلك على أمل أن نمضي وقتاً أكبر معاً.

تأففت قبل أن تقول: «أتقول إننا إذا تواجدنا في قارةٍ أخرى فسوف نمضي وقتاً أطول معاً؟ لا أفهم ذلك».

- فكّري في المسألة. عملت مع تيم بروكمان، وهو المنتج الشهير الذي فاز بجائزة أوسكار عن أفلام الحرب التي أنتجها. يحتل اسمي مكاناً مرموقاً في هذه الأفلام. يُضاف إلى ذلك أنني تلقيت عروض عملٍ لا حصر لها منذ أن أنهيت العمل في هذا الفيلم. أصبحت الوظائف تطاردني بعد أن كنت أطاردها.

- حسناً! يبدو هذا حسناً وممتازاً بالنسبة إليك، لكن ما هي الفائدة التي سأجنيها أنا؟ سوف أظل حبيسة منزلنا الصغير لوحدي معظم الأوقات.

- أصبح بمقدوري الآن أن أنتقي الوظائف التي تناسبني، أي الوظائف ذات الأجر المحترم، وبشكلٍ أستطيع معه أخذ إجازات أطول، أو أن أعمل في المشاريع القريبة من المنزل. يُضاف إلى ذلك أنني أمتلك خطة أريد الحصول على رأيك فيها.

- خطة؟ أنت؟

- فكّرت في التشارك مع آندي في فتح استديو للمؤثرات الخاصة خاص بنا. نستطيع أن نشيّد القسم الأكبر من البناء في أرضنا، وفي المكان المناسب. يمكننا هكذا أن نتداول السفر، وفي غضون سنواتٍ قليلة، أي بعد أن تقوى شركتنا، نستطيع أن نوظف عدة متخرجين من معهد السينما كي ينجزوا قسماً كبيراً من العمل. أستطيع أن أبقى هنا كي أدير العملية من ناحيتي.

- استديو؟ إنها فكرة رائعة!

- أعرف ذلك.

ابتسمت في وجهه قبل أن تقول: «تيقظ لما يرسي عليه دماغك قبل أن تسرع إلى أمور تسبب لك الخسارة. انتبه إلى تلك السيارة أمامنا».

لم يدرك أنه حاد بانتباهه عن الطريق طيلة تلك المدة. أبطأ سرعة السيارة

كي يزيد المسافة ما بينه وبين السيارة أمامه.

- إذاً، هل أعجبتكِ الفكرة؟

- أعجبتني فعلاً. يُحتمل أن تنجح نجاحاً هائلاً.

لاحظت أديل أن صوته ما زال يحمل بعض التعب.

- إذاً، هل فهمتِ الآن سبب اضطراري لقبول الوظيفة، ولماذا بدت مهمةً جداً بالنسبة لي... أعني بالنسبة إلينا؟

- لماذا لم تخبرني بكل هذه الأمور قبل مغادرتك؟

تأوه نك قبل أن يجيب: «لم تكن فكرة الاستديو قد تبلورت بالكامل في ذلك الوقت، كما أنني أعلم كم تكرهين الخطط غير الناضجة تماماً. تعرفين، على أية حال، كيف تكون حالتنا عندما تحتدم المناقشة».

- يبدو الأمر منطقياً بالنسبة إليّ بعد أن أخبرتني عن الفكرة، لكن بدا لي في ذلك الوقت أنك تريد أن تقتلعني من جذوري، فأترك وظيفتي وأصدقائي وكل شيء يجعلني أشعر بالأمان والأمن. شعرت أنني مهددة لذلك رددتُ بعنف.

- ألا أجعلكِ تشعرين بالأمان يا أديل؟

استغرقت وقتاً طويلاً كي تجيب.

قال نك: «حسناً! هذا يفتر كل شيء. أليس كذلك؟ إنك تفشين أسرارك إلى مني وأصدقائك الآخرين، وتقدمين لهم المساعدة عندما يحتاجونك، وتذلّلين لهم كل الصعوبات. لماذا لا تفعلين الأمر ذاته معي؟»

لم يكن بحاجة، في الحقيقة، إلى إثارة كل هذه المواضيع، لأنهم كانوا يقتربون من نقطة خروجهما من الطريق الرئيسية كي يسيروا فوق الطرقات الأسكتلندية الريفية، وبالطبع فإن الظروف لم تكن مناسبة لفتح هذا النقاش.

- إنني أفعل. على الأقل أنا أحاول أن أفعل.

- حسناً! ربما أريدك أن تحاولي أكثر، وربما أريدك أن تكوني أكثر صراحةً معي كما أنتِ مع مني. إنك تخبرينها بكل شيء، فيما يبقى جزء منك لا تشاركينني فيه مهما فعلت. أنا أشعر -بطريقة ما- أنك لا تثقين بي بما فيه الكفاية. يُضاف إلى ذلك أنني لا أظن أننا نمتلك أي فرصةٍ للنجاح إذا لم نكن

صريحين جداً وصادقين مع بعضنا بعضاً.

لم تتحرك أديل، لكنها وضعت يديها في حضنها وبقيت ساكنةً جداً.

- ألا تريدين قول أي شيء أديل؟ كنتِ غامضةً جداً بشأن رفضك الرد على مكالماتي الهاتفية عندما كنت في الولايات المتحدة. لا يمكن أن تظلي غاضبة طوال تسعة أشهر كاملة. ماذا فعلت كي تغضبي مني إلى هذا الحد؟ لا يمكنني إصلاح غلطتي إن لم أعرف ما هي. قلت لكِ ما عندي، وقدمت تفسيراتي إليك. إنني على استعداد لأن أقوم بكل ما في وسعي في سبيل إصلاح علاقتنا.

اكتفت بهزّ رأسها.

- أخبريني لماذا كنتِ غاضبةً جداً إلى حد أنك اقتنعت بالانفصال وطلب الطلاق. أعلم أنني كنت غبياً، لكنني أريد أن أعرف ما هو الأمر الذي تسبب بأذى شديدٍ لك. كنت تطلبين مني على الدوام أن آخذ الأمور بجدية. حسناً! إنني لا أمزح الآن. أليس كذلك؟ تحدّثي إليّ.

- لا يعود السبب...

سدّد نحوها نظرةً سريعة، فبدا له كأنها توشك على الانفجار بالبكاء.

- لا أستطيع أن أتكلم في هذا الموضوع الآن، نك. بالإضافة إلى أنه من الأفضل أن تركزعلى القيادة. ستتحدث في ما بعد. موافق؟

جاء كلامها تصريحاً لا سؤالاً. ها هي تُغلق الباب في وجهه مرةً أخرى. كيف يمكنه أن يخترق كنه هذه المرأة يا ترى؟ كان متفائلاً جداً هذا الصباح، لكنه بدأ يدرك الآن أن أديل كانت على حق، عندما قالت إن هناك عدداً كبيراً من الأمور التي ينبغي معالجتها قبل أن يفكرا في استئناف حياتهما معاً.

ساهم وجود أديل في الطريق إلى إنفرغارنغ في تهدئة خواطرها بعض الشيء. سلكا الطريق التي تمر بمحاذاة لوك لوموند، وتوقفا في قريةٍ صغيرة تدعى لوس ليتناولا الطعام الذي أعدته لهم ديلا في سلّتها.

شاهدا البيوت الريفية الصغيرة المشيّدة على جانبي الطرقات. تصاعد الدخان من معظم مداخن هذه المنازل في هذا اليوم البارد من شباط. كانت الشمس قد اقتربت من الأفق، وبدا كل شيء مصطبغاً باللونين الأصفر

والرمادي أثناء سيرهما فوق شاطئ البحيرة الصغيرة، وأثناء جلوسهما على أحد المقاعد كي يتناولا شطائرهما وبعض الحساء وبعض الكاتو. لم يتكلم نك كثيراً، لكنها لاتلومه. إن الصدق والصراحة هما فعلاً الطريق السليم الوحيد، لكن مصارحته بكل الأمور وبمخاوفها على الأخص، يعني أنه سوف يبتعد عنها بعد أن يتيقن أنها أقل من مثالية. فكّرت بالاجهاض، وهو الذي يعني أنها تخلت عن الشيء الوحيد الذي بقي لها: التحكّم في حياتها. شعرت أنها إذا صارحته وواجهته بكل الأمور التي تشغل بالها، فإنه سوف يمتلك زمام السيطرة التامة على الأمور. أما إذا اختار أن يتركها للمرة الثانية، فإنها سوف تذبل كزهرة. عليها مواجهة الأمر، لأنها كانت معلقةً بخيطٍ واهٍ في المرة الأخيرة.

لكن إذا لم تصارحه بمكنونات قلبها الآن، فإنها قد تخسره إلى الأبد على أي حال. تمنت لو أن بإمكانها التأكد من مشاعرها. إنها تحتاج إلى ضمانات تؤكد لها نجاح الزواج هذه المرة.

قاطع صوت نك تمتمتها: «أترغبين في إكمال هذه؟»

نظرت إلى ما تبقى من الشطيرة في حضنها. بدت شطيرة الخبز السميك الأبيض المليئة بقطع الجبن والصلصة لذيذةً، لكنها لم تعد ترغب في إكمالها.

- لا! أكملها أنت إذا أردت.

فجأة، وقفت وقالت: «سأعود في غضون لحظات. أريد إجراء مكالمةٍ هاتفية».

لم يكن لدى نك من خيار سوى إبداء موافقته بينما كان على وشك البدء بالكلام.

سارت بمحاذاة شاطئ البحيرة حاملةً هاتفها المحمول. لاحظت أن إشارات الإرسال ضعيفة، إلا أنها أصبحت أقوى أثناء تقدمها نحو المحلات التي اعتاد السياح أن يشتروا منها، والتي تقع على رصيف ميناء خشبي. ضغطت على زر طلب المكالمات السريعة كي تطلب رقم منى، ثم انتظرت الرد من الجهة الأخرى.

- مرحباً!

- هذه أنا.

- انتظري قليلاً.

تمكنت من سماع التعليمات التي وجهتها منى بصوتٍ خفيض إلى ابنها جوش كي يلون رسمه بطريقة صحيحة أثناء تكلمها على الهاتف.

- حسناً! أخيراً اتصلتِ بي. ما هي آخر أخبار سكوتلندة؟ هل صدمتِ زوجك السابق بأخبارك أم لا؟

ضحكت أديل قبل أن ترد: «لم يصبح زوجي السابق بعد، فأنا لم أبدأ بعد باستخدام أسلحتي الفتاكة».

- يا للأسف. ماذا سيقول ذلك الفتى المسكين إذاً؟

تأوهت قبل أن ترد: «يريد أن يمنح زواجنا فرصةً أخرى».

أصدرت منى صوتاً تراوح ما بين الهمهمة والاستهجان.

- يقول إن الأمر سيكون مختلفاً هذه المرة.

- كلهم يقولون ذلك يا أديل، وجميعهم يمتلكون أعذاراً منطقية وعقلانية لسلوكياتهم السيئة، بحيث يجعلونك تشعرين بالأسى تجاههم إذا لم تقتنعي بأعذارهم.

- أعرف. أعرف. لكنه مختلف عن الآخرين... أو لربما كنت أنا المختلفة. لا أعرف.

بدا صوت منى أكثر نعومةً، عندما أجابت: «كوني حذرة. لا يستطيع النمر تغيير جلده، حتى لو أقسم أنه قادرٌ على ذلك، وحتى لو أراد. ألا تتذكرين الحالة التي تركك فيها؟»

شعرت أديل بالاحباط والتوتر، وأنها على وشك الصراخ. تذكرت أن الحياة بدت رائعة عندما كانت الأمور تسير على ما يرام بينهما. كانت تشعر عندها بأنها جذابة ورائعة، وأن الآخرين يقدّرونها. أما السبب في ذلك فهو أن نك يعرف كيف يجعلها سعيدة.

- لا! لم أنسَ.

- يستطيع نمرك ذاك أن يكون ساحراً عندما يريد يا أديل. لا تخدعي نفسك

بهذا السحر. إن كل ما أقوله لك هو أن تنظري إلى حقيقة الأمور.

افترضت أديل أنها فعلت ذلك للمرة الأولى في حياتها.

- حسناً! سوف أكون على حذر. اعتني بنفسك أنتِ أيضاً يا منى.

أرادت أديل أن تثق بغريزتها بالفعل، لكن ماذا لو كانت منى على صواب؟ إن ما تمر به مع نك الآن لا يمكن وصفه بالحياة الحقيقية. يُحتمل أن تبدو جديدةً ومثيرة، لكن يحتمل أن تبدو الأمور برمتها مملة ومتعبة مرةً أخرى.

- اتصلي بي مجدداً إذا احتجتِ إلى دعمٍ معنوي. اتفقنا؟

- اتفقنا!

- وداعاً.

أنهت أديل المكالمة ونظرت نحو الشاطئ الصغير إلى حيث يجلس نك الذي أنهى غداءه، وراح يتسلى بقذف الحصى على سطح البحيرة. تمنى جزء منها لو ينضمّ إليه كي يشاركه القهقهة والعناق، وهكذا يسيران سوية إلى السيارة يداً بيد، لكنها عجزت عن كسر الجدار الزجاجي الذي أقامته بينهما. أطلقت كلمات منى سلسلةً من الأفكار التي لم تكن متأكدةً من أنها تريد مواجهتها. هل هذه المصالحة التي تمت بينهما مجرد تمنياتٍ لا أساس لها؟ هل هي مجرد مناورة للتغطية على أمورٍ أخرى؟ تمنت لو أنها تعرف الجواب. علمت أن نك يظن أنه إذا كسر أمراً هنا وجبر أمراً هناك، فإن الأمور سوف تكون على ما يرام. أنه ماهر في هذه الأمور، لكن بعض العلاقات التي تتعرض للتفسخ تبقى متفسخة إلى الأبد. نجح نك في تجنب الصدام مراراً لا حصر لها. لطالما بدا مليئاً بالمرح والحيوية، فلا عجب إذاً أن تشعر بفراغ كبير طيلة أشهر غيابه عنها. لكنها متأكدة من شيء واحد: لم تعد ترغب بالعيش في ظلال الفراغ مرةً أخرى. تأملته ملياً وانتظرته كي يلقي آخر الأحجار التي يحملها في يده.

- نك! لماذا عدتَ... أعني إلى إنكلترا؟

نظر نك نحوها، فلاحظت نوعاً من الإجهاد في عينيه. قالت لها عيناه: لا تجعليني أقولها إذا لم تكوني جاهزةً لإعطائي شيئاً في المقابل.

- تعرفين لماذا عدتُ إلى البيت أديل.

التفت وسار بعيداً باتجاه موقف السيارة.

استخدم كلمة «البيت». عاد إلى البيت... لم يعد إلى مجموعةٍ من الأحجار والطين، لكنه عاد إليها. صحيح أن نك تركها لكنه عاد. إنه مفهوم لم تعوّد نفسها عليه، واستغرقها الأمر أسبوعاً كي تتفهم الأسباب التي دفعته للعودة، وهي أنه يريد استعادتها. تنفست بعمق. علمت أنه أراد استعادتها منذ البداية، لكنها في ذلك الوقت لم تستطع أن تشعر إلا بالوخز الذي سببه غيابه عنها، لذلك فإنها استجابت بالطريقة الوحيدة التي تعرفها، أي بإقفال الباب في وجهه، والتظاهر بأنها لا تكترث إذا ما هجرها. ألم يكن من الأفضل لها لو أنها سمحت له بالعودة؟ يُحتمل أنها كانت ستراه واقفاً أمام بابها بعد مرور أسبوعٍ أو أكثر، ولربما حمل لها باقةً كبيرة من الأزهار الرائعة. نك على حق! لقد استبعدته من حياتها بطريقةٍ أو بأخرى طيلة الفترة التي عرفته فيها.

حسناً! إنها ليست من النوع الذي ينزع الحواجز مرةً واحدة. عزمت على أن تفعل ذلك على مراحل، فتزيل العوائق شيئاً فشيئاً. كان عليها أولاً أن تدعه يعرف بأنها تريده بدورها أن يعود إلى المنزل.

* * *

كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف عندما وصلا إلى إنفرغارنغ. تمر الطريق الرئيسية لهذه المدينة، فوق جسرٍ مقوّس ومتداع. تمكّنا من مشاهدة الأبراج المدببة لقلعة إنفرغارنغ من خلال الأشجار، وذلك عندما وصلا إلى أعلى نقطة في ذلك الجسر. بدت تلك المناظر وكأنها تؤلف جزءاً من قصةٍ خيالية.

لاحظا أن بقعةً من الضباب تخيّم فوق سطح المياه. بدت المدينة ذاتها غاية في الروعة. لاحظت أديل أن جميع المباني الموجودة في الجزء الرئيسي من المدينة تتبع التصميم ذاته، بما في ذلك فندق بحيرة غاريغ، حيث تقام الحفلة. أصرّت ماغي على أن يقيم الجميع في الفندق لأن منزلها الصغير الذي يشتمل على ثلاث غرف نوم لا يتسع لجمهورٍ مؤلفٍ من خمسة عشر حفيداً.

ركنا السيارة في موقف السيارات المغطى بالحصى خارج الفندق. سيطر

شعور بالحزن على أديل، وهي تهم بمغادرة السيارة بحالتها التي يُرثى لها. تأبطت حقيبتها الصغيرة، وخرجت كي تتبع نك عند دخوله إلى الفندق. سارا عبر ردهةٍ كبيرة في طريقهما إلى مكتب الاستقبال. امتلأت الردهة بضجيج الأولاد الصغار، أما الكبار فبدوا مبتهجين سعداء. رأتهما ديبي أخت نك الوسطى، وما لبثت أن أخذت بالصياح قبل أن تركض نحوهما وتعانقهما بشدة.

توقف الضجيج المتصاعد من الردهة. سمعت أديل شهقات في البداية، ثم أصوات الأقدام المتسارعة، لكنها ما لبثت أن وجدت نفسها مع نك وسط تدافع يشبه ما يحدث في لعبة الركبي. دفعهما الجمهور المتحلق حولهما إلى الردهة، قبل أن يُضطرا إلى رواية قصة رحلتهما المرعبة. شعرت بارتياح لأن نك أغفل ذكر التفاصيل التي حدثت في الصباح الباكر، بدا لها أنه وشقيقاته لا يخفون أي شيء عن بعضهم بعضاً. أنهى نك رواية ما حدث معهما، وما لبثت المحادثة أن انتقلت إلى أخبار العائلة بمختلف أفرادها. أحضر أحدهم كوباً من القهوة ناوله لأديل التي لم تلبث أن استرخت في مقعدها الوثير. انعكس وهج النيران المتصاعد من مدفأة الحطب على وجنتيها، وسمحت للضحكات وأصوات الضجيج أن تطوف من حولها. لاحظت أن هذا المشهد يختلف كثيراً عما كانت تشاهده خلال لقاءاتها النادرة مع والديها. لم تكن هناك فترات من الضجيج بل فترات صمتٍ طويلة، حتى إنها لم تسمع والدها يروي نكتةً واحدة. أما هذه العائلة فهي رائعة، ولا شك في أنها محظوظة في أن تكوّن جزءاً صغيراً منها. لكن قلقها الوحيد يكمن في أنها تشعر أحياناً أن شقيقات نك لا يعرفن كيف يتقبلنها في أسرتهن. ربما لأنها لا تجيد المداعبات السهلة، فهي تجد بعض الصعوبة في ملامسة الآخرين، ولطالما اعتبرت أن المعانقات تسبب لها بعض الضيق.

تساءلت أديل عن الكيفية التي مكّنت أفراد عائلة هيوز من تبادل المشاعر في ما بينهم. إنهم يعرفون كيف يدعمون بعضهم البعض، وأن يثقوا ببعضهم البعض ويتبادلون هذه الثقة مع الآخرين. كان عمر نك لا يزيد عن الأربعة

أشهرٍ عندما ترك والده المنزل، لذلك تحلقت والدته وشقيقاته من حوله من أجل تعويضه عن فقدانه والده. رأت أديل صوراً له عندما كان صغيراً، ولاحظت أنه تمتع بوسامةٍ غامرةٍ حتى في ذلك العمر، ولا شك في أنه يعرف ذلك. بدا لها أن شقيقاته، شارلوت وديبي وسارة يسامحنه على كل شيء. لكنه لم يعد صبياً صغيراً. تشعر أديل برغبةٍ قوية للصراخ في بعض الأوقات، لكن ذلك لا يجدي نفعاً. تعرف أنه سيبقى الطفل المدلل على الدوام، حتى عند وصوله إلى سن التقاعد. التفتت، فرأت شارلوت الأخت الكبرى وهي تعبث بشعر شقيقها بعد أن روى لها نكتةً مضحكة، وكأنها كانت بحاجة إلى تأكيد فرضيتها هذه. ارتشفت أديل رشفةً أخرى من قهوتها، ثم تأوهت قليلاً. تشعر أديل بالزهو عندما ترى شقيقاته يغدقن عليه هذه المعاملة، لكنها في أعماق نفسها شعرت بقليلٍ من الغيرة. لم يسبق أن أغدق عليها أحدهم الاهتمام عندما كانت تنجح بالقيام في أمرٍ ما، أو مسح دموعها في أوقات الفشل.

أخيراً، جاء نك وقام بهذه الأمور لأجلها بالرغم من رفضها في بعض الأحيان. استمع نك إلى ثرثرتها عن خطط العمل ومشاكل الموظفين، ولطالما كان دائماً الكتف التي تتكئ عليها، لكنها لم تلاحظ ذلك الأمر. تذكرت فقط الجانب السلبي منه، كما حدث عندما بدا غاية في الهدوء أثناء بدء عملها في وكالة الاستشارات، بينما كانت هي غاية في التوتر إلى درجة أنها فكرت في إقفال الوكالة. أرادته أن يشاركها النحيب والعويل، لكنه لم يفعل ذلك، وهذا ما زرع بذور الاستياء والاحباط في أعماقها. ظل متماسكاً وهادئاً عندما اشتكت من أمورٍ بدت لها بالغة الأهمية في ذلك الوقت، لكنها تتساءل الآن عن جدوى انضمامه إليها في النحيب. أقدم نك على الأمور التي تحتاج إليها بدلاً من الأمور التي تريدها. كان دائماً الصخرة التي تستند عليها، لكنها افترضت - بطريقةٍ ما - أنه رمالٌ متحركة.

تجولت والدة نك في أنحاء الغرفة، لكنها ما لبثت أن استرخت على كرسي بعد أن نهضت أديل كي تقبّلها وتعانقها بسرعة: «كيف حالك، ماغي؟»

- إنني أصارع نوبة مرضٍ.

لاحظت أديل الإجهاد الذي يحيط بعيني حماتها، لكنها لم تتوقع جواباً غير الذي سمعته.

قالت ماغي: «يبدو أنكم عانيتم بعض المصاعب في طريقكما إلى هنا؟ لكنني مسرورة بالرغم من ذلك لأنكما تمكنتما من الحضور. أعلمْ يا أديل أن الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة إليك».

تسارعت دقات قلبها. قال لها نك إنه لم يُبلغ والدته بحصول مشاكل بينهما. لكن كيف تمكنت من معرفة أنها...؟

- أقدّر لك كثيراً أنك تركتِ عملك كي تأتي إلى هنا، بالإضافة إلى أننا تقاسمنا رفقة نك معك فور عودته من كاليفورنيا.

- شكراً لك، ماغي. أتعرفين؟ لم أكن لأفوت حفلتك هذه مقابل العالم كله.

أومأت حماتها وسدّدت نحوها نظرة حاذقةً وغريبة قبل أن تجيب: «أعلم هذا».

ابتسمت أديل، لكنها شعرت بأن هذه النظرة ما هي إلا مجرد قناع، لأنها تعرف أن ماغي هي إحدى أحذق النساء اللواتي تعرفهن. بدا لها أن نك كان مفرطاً في التفاؤل عندما اعتقد أن والدته لم تقرأ ما بين السطور، ولم تخمن أن هناك شيئاً على غير ما يرام في علاقتهما. سمعت أديل بعد ذلك السؤال الذي تخشاه: «لا أظن أن ابتعادكما هذه المدة الطويلة عن بعضكما كان سهلاً. كيف تسير الأمور بينك وبين نك هذه الأيام؟»

١١- دموع تزيل الضباب

فكّرت أديل بجوابٍ يتلاءم مع السؤال الذي طرحته ماغي، لكنها لم تعثر عليه. بدا لها أن أصدق شيء يمكنها قوله هو: لا أعرف، لكنها أجابت: «رائعة».

ثم وسعت ابتسامتها كي تصل بها إلى مستوى أكثر إقناعاً. التفتت ماغي إليها، ثم سألت بنعومة: «أحقاً؟»

أومأت أديل، وهزّت رأسها، ثم ثبتت ابتسامتها. اختفى القلق من وجه حماتها، وحلّت مكانه ابتسامة عريضة. مسّدت المرأة ذراع أديل ثم طبعت قبلةً أخرى على خدها.

- إنني مسرورة جداً. أنا سعيدة من أجلك.

الارتياح الشديد الذي شعرت به أديل لم يسمح بملاحظة أن جواب ماغي يبدو غريباً نوعاً ما. تنفست الصعداء، وشعرت أنها تجاوزت أولى العقبات. سيكون الجميع مشغولين هذه المساء بمرحهم، بحيث أنهم سوف ينشغلون عن التطلع عليها أو على نك. سيعطيها هذا فرصة لاستجماع شجاعتها، والقيام بما في وسعها كي تنقذ زواجها. نظر نك نحوها وأشار لها كي تتوجه إلى الردهة.

يستطيعان الآن التسلل إلى غرفتهما، والاختباء فيها حتى يحين موعد الحفلة التي سوف تقام في مقصف الفندق عند السادسة. أشرفت ماغي على ترتيبات الحفلة وتنظيم أنشطتها بدقةٍ تقارب التنظيم العسكري. استأذنت أديل وسارت نحوه، فما كان منه إلا أن مدّ يده منتظراً منها أن تقوم بإمساكها. بدا الأمر طبيعياً جداً عندما وضعت يدها في يده، وذلك قبل أن يغادرا الغرفة وهما

يؤرجحان يديهما ببطء. يُحتمل ألا تكون الأمور بينها وبين نك على أحسن ما يرام في هذه اللحظة بالذات، لكنها كانت رائعة في ما مضى، ولعلها تستطيع أن تكون كذلك مجدداً. بدا لها كأن يديهما ملتصقتين ببعضهما عندما سحب يده ليأخذ مفتاح الغرفة من موظف الاستقبال، ثم يناولها إياه.

- اصعدي أنتِ وخذي حماماً، وقومي بما تريدين. سأخرج كي أحضر الحقائب.

فعلت أديل ما اقترحه نك عليها بالضبط، وما إن خرجت من الحمام وهي تمسد شعرها المبلل بمنشفة حتى رأت حقيبتها جاثمةً على طرف السرير. توقعت أن تجده مستلقياً على السرير في انتظارها كما فعل في الليلة السابقة، لكن الأغطية بدت مرتبة، ولم تجد أثراً يدل عليه في الغرفة.

* * *

- ناولني ذلك الشريط من فضلك.

مدّ نك يده من وراء أجهزة نظام تضخيم الصوت وناول دايف ما طلبه، ثم وقف ومسح يده بمقدمة سرواله المصنوع من الجينز.

قال دايف، وهو مهندس الصوت الذي استأجرته والدة نك: «شكراً يا رفيقي. ظننت أنني لن أنجح في تحضير الأجهزة في الوقت المطلوب. أنت قدّمتَ لي مساعدةً فعلية».

- على الرحب والسعة. سررت بمساعدتك.

وجّه نك تحيةً صغيرةً نحو دايف، ثم خرج من غرفة تشغيل أجهزة الصوت. يصل تفكير نك إلى حده الأقصى عندما ينشغل في توصيل الأجهزة والأسلاك أو في بناء الأشياء، فهذا النوع من العمل اليدوي يشغل ذهنه على الدوام، ويجعله يشعر بالمتعة. فكر أن استعادة المرء لزوجته هو أمر أكثر تعقيداً من وصل الأسلاك أو تثبيت الأشياء مع بعضها، كما أنه لا وجود للخطط عندما يتعلق الأمر بالحب. نجح حتى الآن في وضع الأمور في نصابها، لكنه مع ذلك لم يحصل على أي نتيجة. حاول أن يكون صريحاً مع أديل، كما حاول أن يُظهر لها أنه على درجة من النضج هي أكبر مما تعترف له به، لكنها ما زالت مصرة على

الابتعاد عنه. شعر بالانزعاج لأنه اعتاد إزالة كل العوائق الموجودة أمامه والتوجه إلى الهدف الكبير مباشرةً. أراد مشاهدة أديل وهي تندفع إلى ذراعيه مثلما تفعل بطلات الأفلام السينمائية. إن الضغط عليها في هذه المرحلة لن يفيد إلا في تقوية دفاعاتها. ولا يتعيّن عليه الآن إلا أن يكون صبوراً.

* * *

صدحت الموسيقى، وعلت أصوات الضيوف بالضحك. شعرت أديل بحرارة ذراع نك فوق ظهرها، وبأصابعه تضغط بلطفٍ على خصرها. أدركت أنها انشغلت لفترة طويلة بصب جام غضبها على نك بحيث نسيت ما تعنيه رفقته الجميلة، وهو الشعور الذي تعرفه جيداً. إن رفقته مسلية جداً، فهو لا يفرط في مزاحه لكنه يعرف كيف يجذب المرء إلى عالمه المنفتح، حيث يسهل عليه أن يبتسم ويشعر بالدفء في أعماقه. تذكرت أنه جعلها ذات مرة تبكي من فرط الضحك. فكرت أن كل ما يهمها اليوم هو وجودها برفقته، لذلك شعرت بما هو أقوى من شعلة أملٍ بسيطة بالنسبة إلى مستقبلهما معاً؛ ها هما يواجهان العالم سوية، أي كفريقٍ واحد بدلاً من أن يشد الواحد منهما في الاتجاه المعاكس للآخر. تراخت أصابع نك حول خصرها، فتطلعت نحوه.

- لا تنصرفي. يتعيّن عليّ أن أتحدث مع شقيقتي الصغرى. أبلغتني أمي أنها ستغادر باكراً برفقة مارتن، لذلك أريد أن ألتقيها.

أومأت أديل موافقة وما لبثت أن توجهت نحو طاولتهما كي تضع حقيبتها الصغيرة عليها. بدا فندق إنفرغارنغ صغيراً بالقياس إلى فنادق لندن حيث اعتادت إقامة غداءات العمل. يُضاف إلى ذلك أن ضيوف الحفلة كانوا يملأون القاعة التي تشغل الطابق الأرضي بكامله، بالإضافة إلى الردهة، ومقصف المشروبات، وغرفة الأشغال حيث كانت النغمات الموسيقية تتردد في المكان. لم تشاهد في حلبة الرقص سوى فتاتين هما ابنتي شقيقتيه البالغتين الثماني والتسع سنوات، حيث راحتا تستعرضان أجمل حركاتهما. ما زالت السهرة في بدايتها، لكن لن يتأخر الآخرون في الانضمام إليهما، وسرعان ما تمتلئ الصالة بالراقصين شيئاً فشيئاً.

انتهزت أديل الفرصة كي تلقي نظرةً فاحصة على الغرفة. لاحظت أن نك يقف في المدخل المؤدي إلى غرفة الخدمات التي تتغيّر الألوان فيها من الأحمر إلى الأرجواني ثم إلى الذهبي، وقد انشغل بحديثٍ عميقٍ مع شقيقته سارة. سارة هي الأقرب إليه من بين كل شقيقاته لأن عمريهما متقاربان. مدّ نك يده إلى جيبه، ثم تناول مغلفاً سميكاً أعطاها إياه، فاتسعت حدقتي عينيها وارتفعت يدها كي تغطي فمها. فتحت المغلف بأصابع مرتجفة، وسرعان ما انهمرت الدموع على وجنتيها. بعدئذٍ فتحت ذراعيها وعانقت شقيقها، أما نك فظهرت تعابير جدية على وجهه أثناء معانقتها له. أخيراً، همس في أذنها شيئاً ما قبل أن ينفصلا. كان نك يضحك، بينما كانت هي تبتسم وسط دموعها المنهمرة.

شعرت أديل بتزايد ضربات قلبها عندما شاهدته يسير باتجاهها من دون أن يحوّل نظره عنها ولو للحظةٍ واحدة. أدركت أن زوجها رجلٌ رائع، وسألت نفسها بقوة عن السبب الذي جعلها تنسى هذا الواقع. لماذا سمحت للشكوك والانتقادات بالتغطية على هذه الحقيقة؟

إنها حماية الذات! كان ذلك الجواب الوحيد الذي استطاعت التفكير فيه. لكنها عجزت عن تذكّر سبب احتياجها للحماية ضد نك.

- تعالي سيدة هيوز لتشاركيني الرقص!

هزّت أديل رأسها، لكنها سمحت له بجرها نحو مكبرات الصوت الصادحة. بدأت الصالة بالازدحام، بعد أن نجحت الموسيقى في جذب أفضل الراقصين إلى باحة الرقص. كانت الأغنية التي رقص الحشد على أنغامها سريعة الإيقاع، لكن نك نجح في الإبقاء على ملامسته لها على الدوام. لم يحاول أن يحشرها مع جموع الراقصين، أو أن يرغمها على تأدية الحركات الصعبة كما فعل بعض الرجال الآخرين. ظل ممسكاً يدها بينما سمح لها بالتحرك بالطريقة التي ترتاح إليها.

بعد أربع أغنيات أخرى أرادت أديل أن تستريح قليلاً كي تستعيد أنفاسها، أسرعت إلى حمام السيدات، فوجدت أن سارة هناك أيضاً وهي تصلح تبرجها. سارعت سارة إلى تناول منديلٍ ورقي من حقيبتها عندما

لاحظت دخول أديل، وما لبثت أن وضعته على عينيها.

- سارة! هل أنتِ بخير؟

بدا وجهها متغضناً قبل أن تجيب: «أجل... لا».

- ما المشكلة؟ هل نك هو السبب؟ هل قال لكِ شيئاً؟

استخدمتْ سارة منديلاً كي تنظف أنفها، ثم هزّت رأسها: «لا! نك لا دخل له بالأمر. إنه شخص رائع».

نظرت أديل نحو يد سارة، وتساءلت ما إذا كان يجدر بها أن ترفعها وتربّت عليها. فكرت أن الوقت مناسب لذلك على الأرجح.

- إذاً ما الأمر؟ ما الذي أثار انزعاجك إلى هذه الدرجة؟

جلستا على مقعد وثير قبالة صف المرايا.

- تشاجرت مع مارتن.... حول أمورٍ تافهةٍ بالفعل. إنها أمور سخيفة جداً...

- اسمعي! تلك الأمور تحدث معنا جميعاً.

بدت سارة مصدومة، لكنها قالت: «حتى أنتِ ونك؟ أنتما تبدوان دوماً على وفاق تام، فأنتما... مثاليان جداً».

ابتسمت أديل ابتسامة ساخرة. أخذت سارة نفساً عميقاً قبل أن تقول: «وقعنا تحت تأثير ضغوطٍ كبيرة في الفترة الماضية. انتهينا للتو من الخضوع للدورة الثانية من علاج الخصوبة».

فهمت أديل سبب كون سارة شقيقة نك الوحيدة التي لم تساهم في زيادة عدد أحفاد العائلة حتى الآن. رفعت حاجبيها بينما هزّت سارة رأسها، وعجزت عن الكلام للحظاتٍ قليلة، لكنها أخذت نَفَساً عميقاً وتابعت: «إن كل ما يقوم به يثير جنوني. أشعر أنني غاضبة من دون أن أعرف السبب، لكن مارتن ليس مخطئاً على الإطلاق. يبدو كل شيء... هل يبدو ذلك فظيعاً؟»

هزّت أديل رأسها، لكنها شعرت أنها عاجزة عن قول أي شيء.

- علمت منذ دقائق أن إحدى أعز صديقاتي حامل، مع أنها تزوجت منذ أشهرٍ قليلةٍ فقط، حتى إنها ليست واثقة بعد من أنها تريد الانجاب. هل هذا من

الإنصاف في شيء، فيما أنا...؟

حاولت منع إنهمار الدموع على خدّيها، إلا أنها استغرقت بالبكاء والنشيج ولم تستطع إكمال جملتها. لم تعد أديل بحاجةٍ إلى من يشجعها، لذلك احتضنت سارة وشدتها نحوها بقوة. إنها تعرف معنى تلك الخيبة المدمرة التي ترافق قياس درجات الحرارة وتوقعات الخصوبة، والتي تأخذ حيزاً كبيراً من الوقت. لا بد أن الأمر هو أسوأ بالنسبة إلى سارة، لأنها اضطرت إلى أخذ حقنٍ كثيرة، ولأنها وضعت كل آمالها في تلك المحاولة. رجع تنفس سارة إلى وضعه الطبيعي، وما لبثت أن نهضت متراجعة.

- اسمعي... لا تبدأي!

استخدمت أديل ظاهر يدها كي تمسح دموعها. قالت سارة بعد أن ابتسمت قليلاً: «حتى قطتي الغبية حملت!»

قهقهت المرأتان بمرح، وتعانقتا مجدداً.

- دعينا ننتهي من مشاكلي أنا. ماذا بشأنك أنتِ ونك؟

- لا يمكنني أن أصفها بأنها... عظيمة، في واقع الأمر.

اتسعت حدقتا سارة إلى حدّهما الأقصى: «لكنكما تبدوان الليلة على أتم... أنتما دائماً...».

- قد تكون المظاهر خادعة أحياناً. حاولت أنا ونك الحصول على طفلٍ في الواقع.

ضغطت سارة على يدها وسألتها: «كم من الوقت حاولتما ذلك».

- لمدة سنةٍ كاملةٍ تقريباً.

- ألم تحصلا... على نتيجة؟

عضّت أديل على شفتها. لم تبلغ أحداً قبل الآن بهذا الأمر إلا صديقتها منى. لكن سارة لا تعرف شيئاً عن الألم الذي واجهته، كما أنها تمتلك دافعاً إضافياً كي تخبرها، كما أن هذه الأخيرة لن تقسو بالحكم عليها. شعرت أديل بحرقةٍ في عينيها، وما لبثت شفتاها أن ارتعشتا. بدأت الدموع بالانهمار على خدّيها بغزارة، قالت أديل همساً: «تعرضت للاجهاض!»

سمعت أديل الشهقة التي أطلقتها سارة، وشعرت بيدها الدافئة تمسّد ظهرها كي تواسيها. لم تجد أي من المرأتين ما تقوله، لكن أديل شعرت بالارتياح لأن رفيقتها لم تحاول قول أي شيء، فهي تخشى عبارات المجاملة. تناولت سارة منديلاً ورقياً نظيفاً من حقيبتها وأعطته إلى أديل التي أخذته بامتنان كي تمسح به أحرّ دمعاتها. قالت سارة وهي تقفل سحاب حقيبتها: «هذا الأمر مدمر بالنسبة إلى نك».

شعرت أديل بألم في أعماقها. هزّت سارة رأسها، وقالت وكأنها تحدّث نفسها: «لا بد أنه أصيب بصدمةٍ حقيقية، لأنه لم يُخبر أياً منا. ليس من عادته إخفاء أي أمرٍ عنا، لذلك فإن ما فعله الليلة يأخذ أهمية متزايدة».

- وكيف ذلك؟

انشغلت سارة بالتربيت على حقيبتهاوهي تقول: «حسناً! أعتقد أنك تعرفين جيداً كم يسبب هذا الأمر ضغوطاً على الزوجين. إن أحد أسباب التوتر الناشئ ما بين مارتن وبيني هو أننا استخدمنا كل مدخراتنا. كانت التجربة الثانية آخر محاولةٍ لنا. قدّم لنا نك المال اللازم لمحاولةٍ أخرى. جاءت هذه المفاجأة التي قدمها لنا بمثابة المعجزة».

ضحكت، والتمعت عيناها: «قال لنا إنه لا يستطيع التفكير بطريقة أفضل لإنفاق الدفعة الأولى من أول مرتب ضخمٍ يتقاضاه. أتعلمين أن لديك رجلاً رائعاً؟»

وقفت سارة مستعدة للمغادرة: «أعتقد أنه من الأفضل لي أن أذهب كي أجد مارتن. أريد أن أخبره بأنها ليست نهاية العالم».

ندّت ابتسامة غير متوقعة من فم أديل: «إذا كان ذلك سبب المشكلة بينكما...؟»

أغمضت سارة عينيها وقالت: «قلت لك إنها مسألة سخيفة».

أومأت أديل وقد فهمت أن محاولات مارتن وسارة الفاشلة لإنشاء عائلة أضافت ضغوطاً شديدةً على علاقتهما. إن إدراك ما جرى هو شيء رائع! هي ونك لم يواسيا بعضهما، بل حاولا أن يتظاهرا بأن الأمر غير مهم. فعل نك

ذلك بطريقته الخاصة؛ أي رواية النكات، أما هي ففعلت ذلك بطريقتها الخاصة أيضاً؛ أي بالتمسك بالروتين الذي لا يمس. لكن التيارات القوية الكامنة باعدت بينهما. وفي النهاية جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير؛ أي عرض العمل الذي تلقاه نك. أدركت أديل أن المشكلة ليست في عرض العمل ذاته بل في طريقة تسوية الأمور بينهما. إن إصلاح الأمور هو ما يجب أن تضعه نصب عينيها الآن. نادت سارة ما إن وضعت هذه الأخيرة يدها على مقبض الباب كي تفتحه: «لا تقلقي بشأن مارتن. احرصي على أن تذهبي وتتحدثي إليه، وأفصحي له عن مشاعرك بدلاً من كتمانها».

أومأت سارة واختفت من خلال الباب.

حدث الأمر ذاته بينها وبين نك. لم تشأ أن يعرف مقدار الأسى الذي شعرت به. إنها تعتبر نفسها سيدة أعمال ناجحة، اعتادت تسوية مشاكل الناس بشكلٍ يومي. بدا لها أنه من المحزن ألا تكون قادرة على القيام بدور الأم الناجحة أيضاً. شعرت أديل على الدوام بإحساس غامض يسيطر على أعماقها يوحي لها بأنها فاشلة، كما أنها بذلت أقصى جهدها للمزاح بشأن ذلك الشعور، ولطالما أرغمت ذاتها على النجاح من دون أن تستسلم للفشل. بدا لها أن الحياة تهزأ منها أخيراً عندما عجزت عن أن تقوم بالأمر الأساسي الذي صمّم جسدها من أجله. إن كل منافع العالم التجارية لا تشكل عندها أي فرق. لكن الأمر يتعدى ذلك، ويتعدى مجرد الجهد المبذول للحصول على طفل، ويتعدى السر الوحيد الذي تخفيه عن نك؛ إنها تعرف الآن أنها لم تنجح كثيراً في تعريفه باحتياجاتها! لكنها تمتلك الآن شيئاً في غاية الأهمية تريد إبلاغه إياه، وهو الأمر الذي لم يكن يجدر بها كتمانه طيلة هذه الأشهر. أرادت أن تُبلغ نك الحقيقة بكاملها بما تشمله من أخطاء وعيوب ومخاوف. إن لم تفعل ذلك فإن هذا السر سوف يتفاقم حتى يقضي على زواجها من الداخل.

سارت متراجعة نحو المرآة، ثم تناولت مجمّل الرموش من حقيبتها. توقفت عندما كانت تهم بوضع هذا المجمّل على رموشها، ثم تناولت منديلاً من علبة المناديل الموجودة على الطاولة. مسحت الآثار الرمادية التي تركتها دموعها بكل

عناية، حتى إنها مسحت أحمر الشفاه عن شفتيها، ثم انتصبت واقفةً وتطلعت إلى نفسها بنظرة صارمة قبل أن تغادر الغرفة.

* * *

بالكاد تمكن نك من تخليص نفسه من قبضة فيليس، عمة والده. تزامن ذلك مع شعوره بطرقةٍ على كتفه... لوحت سارة بحقيبة يدها باتجاهه.

– أردت أن أشكرك مجدداً يا شقيقي الصغير. أنت لا تعرف ماذا يعني ذلك بالنسبة إلينا... حسناً! أفترض أنك تعرف بطريقةٍ أو بأخرى. يبدو لي كأن هماً كبيراً قد انزاح عن كتفينا.

التفتت كي تبتسم في وجه مارتن عندما تقدم نحوها كي يطبع قبلةً على رأسها.

– كلا. أستطيع فقط أن أفترض ما يعنيه الأمر، لكن هذا ما يعنيه أن يعيش المرء وسط عائلة. أليس كذلك؟ إن ألمكِ هو ألمي أنا أيضاً...

بدا أن سارة سوف تستسلم للبكاء مرةً أخرى، لكنها فتحت ذراعيها بقدر ما تستطيع، فاقترب نك كي يعانقها، ثم شدّها باتجاهه. قالت: «لا تنسَ أن بإمكانك أن تتصل بي في أي وقتٍ تشاء... وبخصوص أي موضوع».

بدا نك مرتبكاً، لكنه أجابها: «بالتأكيد».

ابتسم بعد أن ابتعدت عنه شقيقته وزوجها وقد شبكا ذراعيهما. لم يسبق له أن رآهما مرتاحَين هكذا منذ وقتٍ طويل. لمح أديل بعد ذلك وهي تقف في الجهة الأخرى من الغرفة محدقةً به، لكنه لاحظ أنها تحتضن حقيبتها الصغيرة كأنها تحتمي خلفها. بدت مختلفة وبطريقةٍ ما... أكثر إشراقاً. ابتسم في وجهها، وما لبث أن سيطر عليه شعور بأن كل شيء على ما يرام. لم يعرف السبب، لكنه شعر كأنهما قد اجتاز عقبةً ما. سار نحوها، فتناول حقيبتها منها ووضعها في مكانٍ آمنٍ، ثم قادها نحو حلبة الرقص.

– والآن... أين كنا؟

انزلقت أديل بين ذراعيه كأنهما مكانها الطبيعي، فيما بدأت تتردد في القاعة أصوات الموسيقى الهادئة البطيئة، وما لبثت أن أسندت رأسها على كتفه

من دون أن تقول شيئاً. تمايلا بلطفٍ معاً لفترة بدت دهوراً. بدا الأمر كأنهما يستوعبان بعضهما البعض ليعوضا الأشهر التي انقضت على فراقهما. تراجع نك قليلاً كي ينظر إليها، فحدّقت فيه بدورها وامتلأت عيناها بوميضٍ جديد بالرغم من تعبها. أخيراً، زالت الحواجز التي تفصل بينهما! شعر وكأنه يستطيع أن يرى من خلال أعماقها، وحتى إلى العمق الذي كان مقفلاً أمامه وممنوعاً عليه حتى الآن. أحنى رأسه قليلاً، وتبادلا أحلى عناق وأشدها روعة. بدا الأمر سحرياً ومذهلاً...

أنهيا عناقهما لكن جبهتيهما بقيتا متلاصقتين، كما حافظا على تمايلهما الهادئ مع موسيقى أغنيةٍ لم يتمكنا من سماعها. وضع مهندس الصوت أغنيات سريعة الإيقاع مجدداً، فهمست أديل في أذنه: «نك! هناك أمر هام أريد أن أخبرك به».

راح يمرغ خدّه بشعرها الحريري. أخذت نَفَساً عميقاً وقالت: «أريد أن أشرح أمراً ما... كل شيء، في الواقع!».

١٢ - صارحته فاختفى

صعدا الدرج الحجري الدائري بصمتٍ إلى غرفتهما. أمسك نك يدها لكنها ظلت تتقدمه بخطوةٍ أو اثنتين. شعرت أن لمسة يده منحتها ارتياحاً كبيراً، وهي تحتاج إلى الراحة في هذا الوقت. شعرت أيضاً أنها أقدمت على أفظع شيء في حياتها. بدا لها أن هذا الدرج الدائري بلا نهاية. لم تكن واثقة مما إذا كان الأمر حسناً أم سيئاً. ما إن وصلا إلى غرفتهما حتى أضاءت أديل المصابيح الكهربائية الموجودة على الطاولات القريبة من السرير. أعطاها الوهج الناعم شعوراً بالأمان ما كانت تحصل عليه لو أنها أضاءت المصابيح شديدة التوهج التي ركّبت في وسط السقف.

جلست عند حافة السرير، ثم وضعت يديها في حضنها. ذكّرت نفسها أنه بدا مرتاحاً خلال كل تلك الشهور التي جاءت فيها فحوصات الحمل سلبية. حسناً! سيكون الأمر على ما يرام. انضمّ نك إليها، فالتفتت كي تواجهه وبدأت حديثها. : «نك. . . !».

اعتادت في السابق أن تمضي أياماً بأكملها وهي منشغلة في حوارٍ ذهني مهم قبل أن تشرع بالحوار الفعلي. لم تكن محاوراتهما الفعلية في السابق تجري كما تخطط لها في رأسها، لكنها لم تهتم لذلك لأنها تستطيع السيطرة بشكل تام على الحوار. لكنها لم تحصل على فرصةٍ كهذه الليلة، لذلك أمسك نك بزمام السيطرة. هذه الليلة سيتوقف مصير زواجهما على ردة فعله عندما تكشف له عما حصل. بدا هذا الواقع مأساوياً، لكن ذلك كان شعورها في الواقع. تناول يديها، ثم نظر إلى عينيها. رأت ملامح التعاطف والاهتمام على وجهه، لكن ذلك جعل عقدة لسانها أشد.

- أديل! يمكنك أن تخبريني أي شيء. تعرفين أنه يمكنك الوثوق بي.

أومأت وابتسمت بخجل، ثم قالت: «سألتني في السيارة. . . عن سبب عدم تحدثي إليك بالهاتف بعد مغادرتك البلاد».

تطلعت في عينيه لعلها تجد بعض التشجيع قبل متابعة كلامها، وفعلاً وجدت ما كانت تبحث عنه.

- حسناً! أنتَ على حق. شعرت بالامتعاض في حينه، لكن هناك سبب آخر.

تغضنت جبهة نك قليلاً، لكن ملامحه أوحت لها أنها تستطيع أن تكمل حديثها بأمان.

- لا أعلم إن كنت ما زلت تذكر بعد مرور هذه الشهور. لكن لم يكن أمامنا سوى أيام قليلة قبل إجراء فحص الحمل التالي.

قرّبها نحوه، واحتضنها بذراعيه.

- كان يجدر بي أن أفكر بالأمر. تركتك تهتمين بالنتائج السلبية للفحص بمفردك، حتى إنني لم أسألك. . .

أحاط وجهها بيديه، ثم قرّب رأسها نحوه: «هل تسامحينني؟ كنتُ أنانياً جداً. . .».

هزت رأسها على صدره، وأجابت: «لا!»

- لا؟ ألن تسامحيني؟

أغمضت عينيها عاجزة عن مواجهته وهما بهذا القرب، لكنها أجبرت نفسها على فتحهما مجدداً. بعد كل هذه السنين من التهرب منه سيتعيّن عليها أن تتطلع في عينيه مهما كان ذلك متعباً بالنسبة إليها.

- جاء فحص الحمل إيجابياً.

عبر شبح ابتسامة وجهه الوسيم، وذلك قبل أن يتنبه الجزء المنطقي من دماغه لوجود أمرٍ غير طبيعي: «لكن. . . !»

ارتخت يداه اللتان أحاطتا بوجهها، وبان الألم في عينيه. صمّمت أديل على عدم النظر إلى الأسفل. رمشت بعينيها كي تتخلص من الدموع التي ملأت

رموشها، وقالت: «فقدته يا نك. مات طفلنا بعمر الستة أسابيع فقط».

قفز من السرير في غضون لحظة، وانتهى واقفاً في الجهة الأخرى من الغرفة. بدت الغرفة أكثر برودة على نحوٍ مفاجئ، تماماً كما كان الجو داخل سيارتها التي علقت بالثلوج. شعرت أديل أن قلبها يكاد ينفطر.

- لِمَ لم تخبريني قبل الآن؟

عضّت على شفتها، واضطرت الآن إلى أن تنظر بعيداً. كان غضبه أشد من قدرتها على الاحتمال. شعرت أن ذلك الجرح في قلبها آخذٌ بالتوسع.

- شعرت بالصدمة في البداية عندما جاءت نتيجة الاختبار إيجابية. ظننت أنك تخليت عني...

- لا تكوني سخيفة! لم أكن أنوي تركك عندما ركبت تلك الطائرة، كنت متجهاً إلى عملي فقط. أنتِ التي قررتِ أن الأمور قد انتهت في ما بيننا.

شعرت أن أسنانها تنسحق. إنها تتعرض للهجوم، وليس أمامها سوى طريقة واحدة للرد على ذلك الهجوم.

- ركبتَ تلك الطائرة وابتعدتَ آلاف الأميال من دون أن تخبرني. لا تقل إن تصرفك هذا لم يترك لي مجالاً للشك في التزاماتك!

- التزاماتي؟ ماذا؟ ما هذا الذي أسمعه منك؟

وقفت، وشعرت فجأةً أنها ترغب في أن تكون على المستوى ذاته الذي يقف عليه.

- أنا من بقيت في المنزل لأقوم بكل واجباتي، بينما رحت أنت تتسكع قرب قطع معدنيةٍ داخل ذلك الاستديو.

بدا لها أن كلامها هذا مألوفٌ ومقبول إلى حدٍ كبير.

- حسناً! فاتني تنظيف المنزل مراتٍ عدة، لكن هذه أعمال ثانوية في نظري. كنت ملتزماً مئة في المئة من الناحية العاطفية، لكن في الأمور المهمة...

راح يقرع منطقة القلب من صدره، ثم قال: «كنتِ أنت هنا طيلة الوقت».

شعرت أديل كأن ضربةً أصابتها في فكّها، حتى إنها وجدت صعوبة كبيرة

في التلفظ بالكلمات الممتزجة باليأس والغضب من شفتيها المرتعشتين: «لا تتجرأ على القول إنني لم أحبك!»

مرّر يده فوق شعره، ثم اقترب من النافذة: «لا أدري. إنني فعلاً لا أعرف. لم أشك بذلك فيما مضى، أي قبل هذه الليلة. لم أشك بذلك بالفعل، بغض النظر عن كل تلك الألاعيب الحمقاء التي نقوم بها».

شعرت أديل بألم عميق في أعماقها. باتت تمتلك الآن خياراً واضحاً هنا، فإما أن تشهر سلاحها وتشرع في حربها، وإما أن تحطم آخر دفاعاتها تحطيماً كاملاً.

اقتربت منه، لكنه أشاح بوجهه ما إن أحس باقترابها. أمسكت بيديه، فشعرت بهما ثقيلتين كأنهما مصنوعتان من رصاص. قالت وهي تحاول أن تجعله ينظر نحوها: «إنني أحبك فعلاً... أكثر من أي شيء آخر.»

لم ترتسم أيّ ملامح على وجه نك. أفلت يديها، ثم سار بمحاذاتها وهو يقول: «فجأةً، لم يعد هذا كافياً».

جمدت في مكانها، وعجزت عن التحرك فعلياً أثناء عبوره الغرفة وخروجه منها.

لم يعد هذا كافياً؟!

تهالكت أديل على المقعد الوثير القريب. حسناً! نك محق؛ إنها ضعيفة وعاجزةٌ من الناحية العاطفية، بحيث لا ينطبق عليها وصف زوجة. ليس من المستغرب، والحالة هذه، أنه لم يعد يريدها بعد الآن. مشت نحو السرير، وخلعت حذاءها بسرعة، ثم انزلقت تحت أغطية السرير. ظنت أن مشاعرها سوف تتغيّر عندما ينهار العالم من حولها، وأنها سوف تشعر... بشيء ما، إلا أنها لم تشعر بشيء. أتراها وصلت إلى الحد الأقصى من قدرتها على الاحتمال؟ تركها زوجها للتو، لكن الشيء الوحيد الذي يمكنها القيام به هو الاستلقاء هنا، والتحديق بالسقف.

كفّت عن محاولة الاستسلام للنوم مع طلوع الفجر، لذلك نزعت عنها أغطية السرير. كانت حقيبتها ما زالت ملقاة على الجانب الآخر من السرير،

أي حيث كان من المفترض أن يتواجد نك. فتحت السحّاب ببطء، ارتدت سروالاً من الجينز وحذاءً ثقيلاً وكنزةً سميكة، ثم ارتدت معطفها، وتوجهت إلى الخارج. لاحظت أنه بالرغم من هطول الثلوج الكثيف في المنطقة، لم يكلّل الثلج إلا قمم الجبال العالية البعيدة. شيّد الفندق على شاطئ صخري يطل على البحيرة. هبطتْ على الدرج ثم وقفت فوق الحصى. سارت بعد ذلك إلى أن وقفت فوق نقطة التقاء المياه مع الشاطئ. والآن، ماذا ستفعل؟

خلال ساعات الليل الطويلة لم تفكر إلا في الذهاب إلى منزلها والانهماك في أعمالها. كانت تعرف أن تلك هي الخطة الأنسب بالنسبة إليها. إلا أنها خطة سيئة في الحقيقة، إذ سبق لها أن جربتها في آخر مرة تركها نك فيها. لكنها كانت قادرة في ذلك الوقت على إقناع نفسها بأن حياتها هي الشيء الوحيد الذي تكترث له، وأدركت الآن أن هذا لم يكن كافياً بالنسبة إليها. بقيت كلمات نك التي تلفظ بها الليلة الفائتة تتردد في رأسها. بذلت كل ما تملكه من قوة وواجهته بكل قوتها، لكنه لفظ حكمه. ألقت نظرةً أخرى على الجبال المكلّلة بالثلج التي توهجت قممها بلونٍ زهري ترافق مع طلوع الشمس، إلا أنها لم تجد عزاءً في هذا المكان حتى وسط هذا الجمال. دسّت يديها في جيبيها، وما لبثت أن عادت أدراجها إلى الفندق.

حاولت جهدها ألا تبحث عن نك عندما دخلت ردهة الفندق. أين تراه أمضى الليلة الفائتة؟ وأين نام؟ عادت في غضون ساعات إلى النقطة التي كانت فيها قبل أسبوعٍ من الزمن؛ إنها لا تعرف شيئاً عن حياة زوجها وتحركاته. لم يكن أي شخص قد استيقظ بعد، لأن الحفلة امتدت إلى ساعات الفجر الأولى. ركّزت انتباهها كي تسمع وقع خطواته عندما يعبر الرواق المقابل لغرفتهما. دخلت الرواق وجلست وسط الظلمة، وانتظرت أن تدب الحياة مجدداً في هذا العالم.

عثرت ماغي عليها هناك بعد فترة من الوقت بينما كانت ما تزال تحدّق من خلال النافذة.

- أديل!

التفتت أديل نحو والدة زوجها، لكن التركيز عليها بدا أمراً مجهداً.

- ماذا تفعلين في هذا الوقت المبكر؟

كانت متعبة جداً إلى حد أنها عجزت عن التفكير بعذرٍ مقنع، لكنها تستطيع الآن قول الحقيقة كما هي لأن الأسوأ قد حدث.

- تشاجرتُ مع نك، ولا أدري أين هو الآن.

نظرت ماغي نحو الردهة، ثم عادت لتنظر نحوها: «رأيته هناك قبل قليل. قال لي إنه ذاهب لممارسة رياضة تسلق الجبال مع ابن عمّه سايمون. ظننت أنه أخبرك بالأمر».

هزّت أديل رأسها بالنفي.

- سوف يعود يا عزيزتي. تعوّد ممارسة هذه الرياضة منذ صغره. اعتاد أن يهرب ويختبئ ريثما يفكّر في متاعبه. إنه لا يحب أن يُظهر للناس إلا الجانب المرح والمشرق منه.

- لن يعود هذه المرة، وإذا عاد فإنه لن يعود من أجلي.

استرخت ماغي على كرسي بجوارها، وراحت تحدّق من خلال النافذة هي أيضاً. مضت دقائق قليلة قبل أن تقول: «أنا آسفة لهذا الأمر. ظننت أن هذه الرحلة ستكون مفيدة لكما أنتما الاثنين، لكن خطتي هذا أعطت نتائج عكسية كما أرى».

رمقت أديل ماغي بنظرةٍ ذات معانٍ، ثم اتسعت عيناها، وانفرجت شفتاها عندما اتضحت الصورة لديها: «أتقولين خطة؟ هل كنتِ تعرفين؟ أعني أكنتِ على علم بما جرى بيني وبين نك؟»

قوّست ماغي حاجبيها وقالت: «أبلغ الخامسة والستين يا أديل، كما أنني لست غبية. علمت أن هناك شيئاً ما يجري بينكما. تعلمين أن عزيزي نك لا يجيد إخفاء الأمور، أليس كذلك؟ ظننت أن تمضية بعض الوقت سويةً سوف يساعدكما على إدراك قيمة حياتكما المشتركة بحيث تعطيانها فرصةً أخرى».

بدت ماغي وكأنها على وشك أن تشرع في البكاء، وهو المنظر الذي لم يسبق أن رأته أديل من قبل، لذلك وضعت ذراعها على كتف السيدة الأكبر سناً، ثم

قالت وكأنها تحدّث نفسها: «كادت الخطة تنجح. تأخرت بعض الوقت كي أدرك ما الذي أمتلكه بالفعل، لكنني خسرته في الوقت الذي حاولت فيه أن أسترجعه. كان يجدر بي أن أكون صادقةً منذ البداية».

بدا كلام أديل مقنعاً.

- لا تكوني قاسيةً على نفسك. تغيّرتِ كثيراً منذ وقت تعرّفي عليكِ. كلنا نحتاج أحياناً إلى دافع، وإن كان مأساوياً في الظاهر، كي نترك منطقة الأمان، لأن ذلك يعطينا فرصة اكتساب خبرة.

ابتسمت أديل ابتسامة ساخرة: «يبدو أنك فهمتِ الأمر على حقيقته».

- أخبرتني سارة بشأن الطفل يا أديل. إنني آسفة جداً.

شعرت أديل بألم في حنجرتها، لذلك اكتفت بالإيماء، فقرّبتها ماغي إلى جانبها أكثر، ثم أسندت رأسها على كتفها. تمنت لو أن هذه البادرة اللطيفة كانت تصدر عن والدتها في أوقات توترها. أدركت الآن السبب الذي جعل تلك يستثمر الكثير في عائلته. تأوهت، ثم تأسفت، لأنها لا تمتلك عائلة خاصة بها كي تستثمر فيها الحب والحنان

* * *

كانت رحلة عودتها إلى المنزل عاديةً جداً. لم تصادف زحمة سير ولا عواصف ثلجية، ولم تضطر إلى تضييع وقتها في تصحيح خط سيرها. شغّلت أديل جهاز الملاحة الموصول بالأقمار الصناعية كي تتسلى، لكنها تجاهلت كل التعليمات التي صدرت عنه.

ظنّت للوهلة الأولى أن رحلتها إلى هذا المكان كانت سيئة، لكنها كانت مخطئة، فرحلة العودة بدت أكثر سوءاً خصوصاً مع بقاء المقعد المجاور لمقعدها خالياً.

* * *

بقي على تلك أن يجتاز نتوءاً صخرياً واحداً قبل وصوله إلى القمة. سحب جسمه نحو الأعلى كي ينضم إلى سايمون الذي وصل إلى بن دوبيه. بدا المنظر ساحراً، وبدت تلك الجبال القديمة ذات القمم الشديدة الانحدار، منعزلة

وجميلة في الوقت ذاته. ألقى تلك نظرةً على سايمون الذي بادله ابتسامته. هذه هي روعة الجبال، لاسيما عندما تتأمل ما حولك من القمة كما يفعل الآن. بدت الطريق سهلة، لكن صعُب عليهما رؤية مدى صعوبتها بالفعل في طريقهما صعوداً. تمكّن من رؤية لمحة من بحيرة غاريغ تلوح من البعيد، وظهرت على حوافها منازل إنفرغارنغ بألوانها البيضاء والسوداء. هل سيفيده وقوفه على القمة في التفكير أكثر بالقنبلة التي فجرتها أديل؟

في البداية، شعر بالغضب وبأنه تعرّض للخيانة، كما شعر بالحزن الشديد لأنه كان يُمكن أن يصبح أباً منذ أسابيع قليلة من دون أن يعلم بذلك. شعر برغبةٍ في الاستسلام للحزن، لكنه لم يعرف كيف. أحس بنوبة غضبٍ أخرى تشتعل في داخله. حرمته أديل من هذا الشعور، وحرمته أيضاً من سماع أخبار طفلهما المنتظر الذي كان قد بدأ بشق طريقه إلى الحياة أخيراً. حسناً! كانت أمامه فرصة الشعور بالسعادة لأسابيع قليلة فقط، لكنه قد لا يحصل على فرصة كهذه مرةً أخرى. يُضاف إلى ذلك أن أديل لا تفكر فيه كثيراً. لم تثق به إلى حد إبلاغه بأنها كانت حاملاً، بل أكثر من ذلك، اعتقدت بأنه لن يساعدها في شيء فيما لو علم بقصة إجهاضها.

لو أنها أخبرته بالأمر لما تردد في أن يستقل أول طائرة عائداً إلى البلاد، فيأخذها على الفور إلى المستشفى. كان بإمكانهما أن يتجاوزا هذه المحنة سوية، لكن أديل لم ترغب بهذه الشراكة. اعتبرته الملاذ الأخير فقط، كما لو أنه لا يفيد في شيء عدا طرد العناكب. آه لو سمحت له أن يكون معها! آه لو قالت له إنها تحتاجه ولو مرة واحدة! لكنها برهنت له ببادرةٍ وحيدةٍ وكبيرة أنها لن تتغيّر أبداً. لطالما كان غريباً بالنسبة إليها، وسيظل هكذا على الدوام. فكّر أثناء نزولهما بالأشهر التي تلت انفصالهما. ظنها مثالية عندما التقاها للمرة الأولى. بدت مشرقة ومتحمسة ومليئة بالحيوية، لكن أديل ليست مثالية أبداً، فأحداث السنة الماضية نسفت ذلك المفهوم. أرادها أن تزيل دفاعاتها، لكنه لم يتوقع أن تكون الحياة بهذه القسوة من دون إزالة هذه الدفاعات. فيما هو يضع قدماً أمام أخرى، بدأ بالتفكير بالمرأة التي أصبح يعرف الآن أنها ليست منيعةً كما كان

يظن، وفكّر في كيفية تمكنها من الخلاص من ذلك الكابوس لوحدها.

* * *

قرع نك الجرس واستند على جدارٍ قليل الارتفاع يحيط بالحديقة الأمامية الصغيرة للمنزل، وانتظر أن يُفتح الباب. كانت الشمس قد غابت لتوها، وبدأت مصابيح الشوارع تشع بالنور. فتح الباب أخيراً، ونظرت المرأة نحوه بغضب. قالت بنبرة لم تستطع معها أن تخفي امتعاضها: «نك هيوز! يجدر بي أن أصفعك، منذ الآن وحتى منتصف يوم الخميس المقبل».

- أنا مسرور لرؤيتك مني. هل أستطيع الدخول؟

زاد العبوس في وجهها: «سأدعك تدخل لأنني لا أريد أن تتسرب الحرارة إلى الخارج من الباب المفتوح على مصراعيه أثناء حديثي معك».

استدارت ودخلت إلى قاعة الاستقبال، ثم إلى الجزء الخلفي من المنزل. تبعها نك بعد أن أقفل الباب وراءه. سألته ما إن دخل إلى المطبخ: «ماذا تريد؟ أنصحك ألا تفكر في توجيه ابتسامتك العريضة نحوي».

استغرب نك كلامها لأنه لم يفكر في استخدام ابتسامته الساحرة. قال: «أريد أن أتحدث معك عن أديل».

- لماذا؟ أتريد أن تكسر قلبها للمرة الثالثة؟

تتميز مني بالقدرة على إثارة أعصابه، أما نبرتها فتحمل شيئاً من... المرارة. أخذ نفساً عميقاً كي يهدئ أعصابه المتوترة، وقال: «أريد أن أفهم يا مني، لأنك الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أسأله. إنها تخبرك بكل شيء، أما أنا فلا أحصل إلا على الفتات».

بدا أن ذلك يرضي غرور مني. جلست على أحد كراسي المطبخ، ثم ناولت الطفلة الجالسة على كرسيها العالي كعكة أرزٍ محلاة.

- ماذا تريد أن تعرف؟

ما من داعٍ للمراوغة، لذلك دخل صلب الموضوع مباشرة: «أعذرها لأنها لم تخبرني أنها حامل في البداية، لكن لماذا لم تخبرني أنها فقدت الطفل؟ دعنا نتحدث بصراحة. تحتاج أديل إلى فترة استراحةٍ طويلة».

كادت مني تبتسم لهذه الفكرة، لكن نك اعتبرها إشارةً تشجيعية له كي يستمر.

- أريد أن أعرف لماذا لا تثق بي.

ضحكت مني، وقالت: «أتقصد بغض النظر عن حقيقة كونك أكبر طفلٍ تعرفت عليه؟»

- أستطيع أن أسخر من بعض الأمور أحياناً، لكن ذلك لا يعني أنني لست ناضجاً. نمتلك جميعاً آليات للتخفيف من بؤسنا. حاولتُ على الأقل أن أصلح زواجنا مرتين حتى الآن. إنني هنا كي أحاول إصلاح هذا الزواج للمرة الثالثة، وما كنت لأفعل ذلك لو كنت طفلاً كما تقولين».

- أليس كل الرجال أطفالاً؟

تابعت كلامها لكن تهجمها عليه توقف، لذلك ظن أنه تمكن من إقناعها بوجهة نظره: «يتعيّن عليك أن تدرك أن قرارها عدم إبلاغك لم يكن قراراً واعياً، على الأقل في البداية. كانت في حالةٍ يُرثى لها يا نك. لم يسبق لي أن رأيتها على هذه الحال من قبل. امتنعت عن الذهاب إلى العمل، كما أن الفوضى عمّت منزلها. كان الأمر فظيعاً بالنسبة إليها».

عبس نك قليلاً، لكن الأمور بدأت تتوضح قليلاً الآن.

- ماذا فعلتَ عندما أبلغتكَ بما حصل؟ هل وقفت إلى جانبها؟ هل هدأتَ من روعها؟ أظن أنك لم تفعل ذلك، بل قلتَ لها إنها لم تكن على قدر المسؤولية.

- لم أقل أبداً...

الآن لم يعد يهم ما قاله وما لم يقله. استعاد في ذهنه الكلمات التي قالها، وأدرك ما هو وقعها على أديل فشعر بالغضب الشديد. رمته مني بنظرةٍ قاسية ومركزة ثم قالت: «فكّر في ذلك الشعور ثم ضاعِفْه مئة مرة، وستعرف عندها حالة أديل في ذلك الوقت».

استغرقه بعض الوقت كي يستوعب كل ما سمعه. سكت فترةً طويلة، لكنه لم يستطع إلا أن يقول: «يا إلهي!»

- إذاً توقف عن الشعور بالأسف لحالتك.

- إنني لا آسف لحالتي.

- تمهّل لحظة واحدة. هربتَ كي تلعق جراحك، تماماً مثلما فعلتَ المرة الماضية.

- حسناً! ماذا يُفترض بي أن. . .

قاطعه عويلٌ حاد يكاد يصم الآذان صادر من أعلى الدرج: «أمي! أنا مريضٌ جداً».

قفزت منى قفزاً عن كرسيها، ثم هرعت خارجةً من الغرفة: «ابق مكانك يا جوش، فأمك قادمة إليك».

انتظر نك خمس دقائق قبل أن يقرر أن منى لربما لا ترغب في وجوده في منزلها. كان قد وصل إلى وسط القاعة عندما سمع وقع خطواتها على الدرج. توقفت عندما وصلت إلى نهاية الدرج فاستدار كي ينظر نحوها.

- لا وقت لدي للحديث يا صديقي، فلدي ما يكفي من مشاكلي الخاصة. سيتعيّن عليك أن تحل مشاكلك بنفسك.

أومأ نك ثم فتح مزلاج الباب، لكن ما إن دفع الباب ليفتحه حتى نادَته: «نك؟»

- نعم؟

- مهما يكن من أمر، لم أظن أنك تمتلك الجرأة الكافية كي تعود، وتحاول إصلاح الأمور مجدداً.

هزّت كتفيها قبل أن تتابع: «عندما أكون مخطئة فإنني أعترف بذلك».

اعتبر نك هذا الكلام إطراءً كبيراً له كونه خرج من فم منى. ابتسم وهو يغلق الباب وراءه.

* * *

كُتب على اللوحة: مزرعة هازل فورد. انعطفت أديل عن الطريق الرئيسية كي تسير فوق طريق مليئة بالأخاديد لمسافة ربع ميل إلى أن وصلت إلى بيتٍ ريفي جميل لكنه مهمل. لاحظت أن عدة منازل منخفضة الارتفاع تحيط به. أهذا هو المكان الذي اتخذته شركة أف - أكس للتصميم مركزاً لها؟ نظرت إلى

الورقة الصغيرة الملصقة على دليل خريطة الطريق الذي وضعته فوق المقعد المجاور لها. افترضت أنها ستجد مركزاً تجارياً أنشئ في مكان مزرعة قديمة لا مزرعةً حقيقية، لكنه المكان الذي تقصده بذاته. يفترض بها أن تلتقي مدير المشروع هنا عند الساعة العاشرة كي تناقش معه بعض تفاصيل العمل. أبكرت في الوصول بعض الشيء، لأن إيجاد هذا المكان بعد انطلاقها من لندن لم يستغرقها أكثر من ثلاثين دقيقة. فكرت أنها تستطيع القيام بجولة استكشافية لعلها تستطيع التعرف على المكان أثناء وجودها هنا. إن التعرف على ممتلكات هذه الشركة هو أحد الأسباب التي دفعت بمديرها إلى تكليفها بهذه المهمة. لم يكن المكان بمثل الإهمال الذي تبدو عليه المنازل المقفلة. افترضت أن الأزهار تنبت في حديقته في فصل الصيف، لكننا لم نصل إلى شهر آذار بعد، لذلك فإن كل شيء بدا بنيّ اللون باستثناء بعض رقاقات الثلج التي بقيت عالقة في بعض الزوايا. انتهت في باحةٍ صغيرة لأحد المباني الخارجية، ربما كانت تُستخدم سابقاً كإسطبلات أو كحظائر للحيوانات. كيف لها أن تعرف؟ إنها فتاة مدينة قلباً وقالباً. فكرت أنه يمكن تحويل هذ المكان إلى استديوهات تصميم صغيرة ممتازة إذا ما توفر التمويل اللازم لها. رأت باباً نصف مفتوح في أحد المباني، فمدّت رأسها كي تتأكد أن الأبقار غادرت المكان قبل فترة طويلة. لا بأس! بدا المكان أكبر مما تخيلته، وكذلك. . .

قاطعت حركة خافتة في الزاوية المقابلة التخطيطات الذهنية التي كانت تجريها. رأت رجلاً يرتدي بذلة يقف وقد أدار ظهره لها. تنحنحت أديل قليلاً قبل أن تنادي: «يا سيد. . .؟»

نسيت تماماً الاسم الذي قرأته في البريد الإلكتروني. في الواقع، لم تكن متأكدة من أن الرسالة الإلكترونية حملت أي اسم على الإطلاق. ذلك تقصير واضح من مساعدة هذا المدير. أما هي فكان يُفترض بها أن تلاحظ ذلك قبل الآن لو لم تكن منشغلة في التفكير بحياتها التي أصابها الانهيار. التفت الرجل نحوها، لكن العالم ما لبث أن ترنح من أمامها.

- نك؟

أوماً، لكنه لم يبتسم، ولم يقهقه.

- ماذا تفعل هنا؟

- إنني صاحب أف. أكس للتصميم. أحتاج إلى مساعدتك.

لم تحمل كلماته معانٍ كثيرة بالنسبة إليها، لكنها شوّشت دماغها بالرغم من ذلك.

- ألم يكن باستطاعتك أن تتصل بشخصٍ آخر؟ إنني أعتبر هذا...

غريباً؟ سوريالياً؟ جنونياً؟ ماالذي يمكنها أن تصفه به؟

- أحتاج إلى الأفضل وأنتِ الأفضل. أليس كذلك؟

اعتادت أديل أن تقول هذا لزبائنها. أرادت أن تتأكد من أين تبدأ. سألته: «أتريد مساعدةً مهنية أم شخصية؟»

- دعينا نبدأ بالمسائل المهنية.

نظرت من حولها نحو الحظيرة التي يعلوها الغبار، ثم رفعت يديها قائلة: «إنني أعمل عادة مع شركاتٍ محترمة، وأقوم بإصلاح الأمور التي أصابها الخلل. أما شركتك فلم تبدأ بالعمل بعد. إذا كنت تطلق على هذه التفاهات اسم...»

سار نحوها وقال: «علمت أنك ستفكرين بهذه الطريقة، وكدت أتصل بك كي نناقش الأمر، لكني شعرت أن من الأفضل أن أخفي عنك ما أريد قوله لك. أردت أن أثبت لك أنني جدي في هذا المشروع».

بدأ نك الجديد الجدّي يثير اضطرابها. وضعت أحد أصابعها في فمها ما إن اقترب نحوها.

- حسناً! هل ترغب في تحويل هذا المكان إلى استديو؟ هل هو الاستديو الذي كنت تفكر في إنشائه مع آندي؟

- أصبتِ، لكن آندي يسكن بعيداً جداً. أريد مكاناً يسهل الوصول إليه من لندن.

- أتعني من أجل أفلامك؟

- لا! من أجلك أنت.

قالت هامسة بصوت بالكاد يُسمع: «أتقول... من أجلي أنا؟»

- ألم أقل لكِ في رسالتي الإلكترونية إنني أعاني من مشاكل صغيرة؟

- همم... نعم.

- قلت ذلك لأنني أقدمت على عملٍ يتصف بالغباء فعلاً.

وقف أمامها مباشرة فابتلعت ريقها.

- سمحت لكبريائي بالسيطرة عليّ، وسمحت لشخص ما بالذهاب في حين أنه ما كان يجدر بي أن أفعل ذلك... أنا آسف يا أديل. نسيت مرةً أخرى أن أضع نفسي مكانك».

ابتلعت ريقها مرة أخرى، لكنها فعلت ذلك هذه المرة كي تكبح جماح مشاعر غير مهنية تهدد بالظهور على ملامح وجهها. اقترب منها أكثر وراح يمسّد خدّها. بدت ملامح وجهه غاية في اللطف.

- يحق لك أن تشعر بالغضب يا نك. لقد خذلتك. إنني لا أصلح لشيء.

- لا. أنا من خذلكِ. كنت تفعلين ما أطلبه منكِ على الدوام، لكنني تخليت عنك في أوقات ضعفك. سامحيني.

مسح بإصبعه الدمعة التي سالت على خدّها.

- كان يجدر بي أن أخبرك من قبل، لكنني...

- صه! أعرف ذلك، لأن كلينا أخطأنا. اكتفينا بالدفاع عن موقفينا بدلاً من العمل سويةً كفريقٍ واحد. ستتغير الأمور من الآن فصاعداً.

- هل ستتغير حقاً؟

ابتسم من كل قلبه.

- إنني أحتاج إلى شريكة.

ارتسمت ملامح ابتسامة خجولةٍ على محياها: «هل يرجع ذلك إلى أنك طردتَ شريكتك القديمة؟»

- لا! أحتاج إلى شريكتي القديمة. يبدو أنني لا أستطيع العيش بدونها.

- لا أعتقد أنها بدورها تحسن القيام بالأمور من دونك. إنها تحتاجك أكثر مما يبدو عليها.

أمسكت يده وشدته نحوها. شعرت بدافع كي تُظهر له كم هي مشتاقة إليه. ابتسم نك ابتسامةً عريضةً عندما ابتعدا قليلاً عن بعضهما بعضاً.

- أعرف أنني من النوع المغامر، حتى إنني أفكر في استخدام خيوط العناكب التي تملأ الحظائر يا عزيزتي.

- خيوط العناكب؟

خرجت أديل بسرعةٍ فائقة، فتبعها نك على الفور وهو يضحك. قال لها وهو يسحب يدها: «تعالي لتشاهدي المنزل... هناك مشكلة لا يستطيع أحد سواك أن يساعدني على حلها».

- آه!

- أريد أن أملأ هذا المنزل ببضعة أولاد، لكنني لا أستطيع القيام بذلك بمفردي.

توقفت، ثم أفلتت يده: «إذاً قد أستطيع مساعدتك».

جذبها نحوه كي يتمكن من معانقتها بقوة. بعدئذٍ قال لها: «أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نمضي عدة أيام معاً. كم من المرات اضطرني العمل للغياب عن المنزل في الأوقات الحاسمة من الشهر؟ أما إذا لم نستطع القيام بذلك بالطرق التقليدية فلعلنا نستطيع أن نتبنى طفلاً، أو نحاول طريقة طفل الأنبوب، أو لعلنا نستطيع أن نستنبتهم في بستان الملفوف القديم في الباحة الخلفية».

أشار نك إلى بستان خضار مهمل يقع إلى جانب المنزل.

نظرت أديل إليه وقالت: «أنا أحبك».

انفرجت أسارير وجهه، وقال: «أعرف أنني رائع جداً».

استحقت كلمته هذه لكمةً على ذراعه، لذلك حصل عليها فعلاً.

- حسناً! إنني أستسلم. سأقول الحقيقة، لكن لا تلكميني مجدداً.

بدت ملامحه أكثر جديةً الآن. أحنى رأسه وعانقها بلطفٍ شديد وهو يهمس في أذنها: «أنا أحبك أديل. لا أحب أديل المثالية، لأنها تسبب لي الألم الشديد، بل أحب أديل الجميلة الشجاعة».

قالت: «أنا لست شجاعة بل جبانة، وأنت تعرف ذلك».

رأت أنه يتعيّن عليها أن تجعله يدرك موقفها. اختفت أديل الخارقة، بل ماتت ودفنت، وهي لا تريد منه أن يقدّس شبحاً. احتضن نك وجهها بيديه وجعلها تنظر إليه. عانقها بعد ذلك عناقاً بطيئاً ناعماً أذاب أحشاءها.

- إن ما فعلتِه... عندما أخبرتني عن طفلنا... كان عملاً شجاعاً يا أديل. عرفت أنك تقومين بمخاطرة كبرى، لكنك أقدمتِ عليها على أية حال. فعلتِ ذلك بسبب حبك لي، ولأنني طلبت منك أن تكوني صريحة معي. لكن أنظري ماذا كانت ردة فعلي. تصرفت بجبن شديد عندما أسرعت راكضاً في الاتجاه المعاكس.

ابتسمت ابتسامة خجولة وقالت: «لكنك عدت... مجدداً، فأنت تعرف أنني لا أستطيع الاستغناء عنك، أليس كذلك؟»

علت ابتسامة عريضة وجهه الذي كان في غاية الجدية قبل لحظات قليلة.

أمضيا قرابة الساعة وهما يستعرضان خرائط الإنشاءات، ويحلمان بأمور ظنا أنهما تخليا عنها إلى الأبد. اصطحبت أديل نك في سيارتها إلى المنزل، وبقيا طوال الطريق يتحدثان بحماسةٍ حول تجديد المزرعة في المستقبل. بدا أنهما يعودان إلى الأيام القديمة، أو كادا...

أدرك كلاهما أن الأمور تبدو أفضل هذه المرة، ذلك أن رابطة أعمق قد نشأت بينهما، وباتا يفهمان بعضهما البعض بصورةٍ أعمق. يُحتمل أن تكون شخصيتاهما متعاكستين تماماً، لكنهما صمما هذه المرة على أن يوظفا هذه الفروقات لمصلحتهما المشتركة بدل أن تعمل ضدها.

تجولت أديل في وقتٍ لاحقٍ من تلك الأمسية في حديقة منزلهما في لندن، وذلك بعد أن ارتدت رداء حمامها. شعرت أنها سوف تحزن لمغادرة هذا المكان، لكن فكرة تجديد ذلك المنزل الريفي، بالإضافة إلى أن نك سوف يعمل بالقرب منها، بدت رائعة. بدا القمر مكتملاً وكبيراً أثناء صعوده وسط السماء الداكنة. أرادت أن تقف في هذا المكان وأن تنظر إليه لفترةٍ طويلةٍ من الوقت. تسلّل نك خلفها، وأحاط خصرها بذراعيه. استندت عليه، واستمتعت بالدفء الصادر عنه. قالت: «أليست هذه الليلة في غاية الجمال».

- إنها ساعة السحر.

شعرت أديل أن نك بدأ بمغازلتها من جديد، فأرادت أن تصرفه عن أفكاره.

- ظننت أن الأمر يتعلق بالدفء الذي تبعثه الألوان لاغير. يبدو الأمر بالنسبة لي مثل الفيزياء القديمة، أي ليس في الأمر أي سحر.

رسم نك خطاً بإصبعه على جانب عنقها، وهمس في أذنها: «ما رأيك في هذا؟ هل رأيتِ سحراً هنا؟»

ابتسمت، ثم أغمضت عينيها وقالت: «يبدو هذا واعداً بالنسبة لي».

هبّت نسمة هواء باردة في المكان، فتراجع نك ثم أمسك يدها وجرّها. رفع حاجبيه وقال: «أعتقد أن من الأفضل أن تدخلي لأريك السحر الذي يمكن أن تحمله الساعة التالية».

انصرف بعد ذلك إلى المنزل لكنه ترك الباب مفتوحاً، كأنه يدعوها كي تلحق به. أدركت أديل أنها وقعت في المصيدة، لكنها لم تتردد في الدخول إلى المنزل وراءه. لم تكن متأكدة من قدرته على الإتيان بالسحر، لكن نك على حق. عندما يتفهم الزوجان الأمور على حقيقتها فإن الأمور تجري بشكلٍ رائعٍ بينهما.